رجال شاقوا الرسول

عادل محمد عمر



رجال شاقوا الرسول

عادل محمد عمر

إهـــــداء

إلى الذين استشهدوا في سبيـــل الله

إلى أرواحهم الطاهرة في سماء العقيدة والإيمان

إلى دمائهم الزكية على أرض مكة وبدر واليمـــامة

إلى الذين يسيرون في طريق الورود لاتثنيهم الســـدود

إلى المنتصرين للحق .. المقـــوضين صروح البـــاطل

إليهم جميعا أهدى هذا البحث راجيا الله اللحاق بهم فهم الشرفاء الأوفياء وهم السمحاء .

عادل محمد عمر

﴿ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ﴾
﴿ ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ﴾
[الأنفال]

﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ﴾
﴿ ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ﴾
﴿ ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾
[النساء]

مقدمة

الحمد لله من استعز به أعزه ومن استنصره نصره ومن استهداه هداه ومن قال له ربى ليس لى إلاك حصنا قال له عبدى أطعنى أجعلك ربانيا تقول الشيء كن فيكون ..

وأشهد ألا إله إلا هو ما خاب عبد سأله هو له أين سلك ، يعطى فلا يمنع الناس عطاءه ويمنع ويجتمعون على العطاء فلا يقدرون . .

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ورحمته المهداة الى سائر العالمين — وبعد

فلم تكن الدعوة الإسلامية ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم لتسلم من الكيد والأذى والحقد والضلال ، وأن ينبرى فريق من الناس يمثلون هذا الكيد وذياك الأذى فى صور شتى من الكفر والعناد والمكابرة . . فريق أغلق قلبه ، وأصم أذنيه وأغمض عينيه ، فلم يرض سماعا ولم يقبل أن يرى ذلك النور الوضاء ، نور الرسالة المحمدية يبدد غياهب الشرك ويمحو برحمته مداد الظلم وخيوط الظلام والضلال الجاثمة على الصدور . .

هذا الفريق صدق فيهم قول الله تبارك وتعالى :

(ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون [1]) .

وأيا ما كان الضلال . .

ومهما كانت رجالاته ودوله ومؤيدوه والملتفون حوله . .

فقد قامت الدعوة المحمدية ووقفت راسخة شامخة فى وجه المعتدين ، وانتشرت وأمتد خيرها ونورها واستجاب لها رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ..

---

(١) الأعراف

أيدوها بكل جارحة فيهم وأعطوها من أنفسهم ونفيسهم كل ما استطاعوا لأنهم رأوا فيها حياتهم وألفوا إنسانيتهم وكرامتهم ووجدوا عندها ما افتقدوه من سعادة وطمأنينة، وباتوا فى سبيلها ينتصرون لها، لم يدخروا جهدا لإعلاء شأنها وإنمائها وما هانوا أو استكانوا «أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون [1]»، «وإن جندنا لهم الغالبون [2]».

ولقد تناول المفكرون والباحثون سيرة محمد صلى الله عليه وسلم تناولا شاملا وسلطوا عليها كثيرا من الأضواء ونقبوا فى جنباتها وقاسوا أبعادها ولا يزالون على هذا الحال من البحث والتنقيب والتأمل والتفكر ولم ينضب هذا المعين ولن ينضب أبداً .. وهو الأمر الذى يؤكد للعالمين أصالة هذه الدعوة ورسوخها وقوتها وعظمتها وأنها من عند الله وليست من إدعاء محمد أو صنعه وأن نور الله لا يقدر على إطفائه أحد وأن ما هو من عند الله لا يلهو به أحد ..

(يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون [3]) .

نعم .. إن الدعوة المحمدية جديرة بكل تقدير .. جديرة بكل تأمل .. جديرة بالدراسة .

ولقد دفعنى إيمانى بهـــذه الدعوة السمحة أن أعيش مع كل ما كتب عنها، وأن أستمع الى من تكلم فيها، وأن أسير فى معالمها ودروبها الجادة وأسلك والحال كذلك طريق السعادة والرشاد طريقها ..

وبدت لى من خلال ما قرأت نقاط تحمل أهمية كبرى ولمحات لها تفاسير عظمى فوددت أن أعيش مع هذه النقاط وتلكم اللمحات وأن أستجلى أهميتها وأتعهدها بالبحث ليعم ما فيها من خير، ويستثمر ما يكمن فيها من بر ..

وعبر رحلة فكرية، وعبر مراجع شتى وآلاف الصفحات أرانى أجلو صفحة من صحائف هؤلاء الذين جادوا الرسول صلى الله علية وسلم وجابهوه

---

(١) المجادله (٢) الصافات (٣) التوبة

وناهضوا دعوته . . وصدوا عن سبيل الله . .

نعم مع عمرو بن هشام .

مع عبد الله بن أبى بن سلول .

مع مسيلمة الحنفى .

ألقاك أيها القارىء الكريم .

ألقاك بثلاثة نماذج وأنماط .

واحد من مكة وآخر من يثرب وثالث من نجد .

لقد تميز كل منهم بعدائه وعداوته وعدوانه على الرسول .

وكلهم أخذتهم العزة بالإثم . . وثلاثتهم كرهوا محمدا وحقدوا عليه فقادوا معارك من العناد والمكابرة والادعاء . .

ولكنهم خسروا معاركهم وذهب ريحهم وارتدوا خاسرين مدحورين . .

« إستحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون (١) »

وإذ أقصد بذلك وجه الحق والحقيقة . .

فإن ثقتى أن أنال رضاك أيها القارىء الكريم . .

غير أنه ثمة رجاء أتجه به إليك أن تردنى إلى الصواب إذا كنت قد أغفلت شيئا ما كان يصح إغفاله . .

(ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب).

وإهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين .

عادل محمد عمر

١١ سيدى عبد الحق ـ ميدان الأوبرا ـ القاهرة

---

(١) المجادلة .

عمرو بن هشام

فرعون هذه الأمة

لما لقى أبو جهل مصرعه يوم بدر ، وتفقد الرسول قتلى المشركين والكفار وقف عليه وقال : (هذا فرعون هذه الأمة) فأطلقنا عليه هذه التسمية .

ونادته العرب بعمرو بن هشام

وبأبى الحكم

وبأبى جهل

وجهل هنا لاتعنى عكس المعرفة بل تعنى مخالفة القانون والتمرد أو الجهل بما هو أفضل ، وهى كلمة إسلامية أطلقت على العصر الذى سبق الإسلام مباشرة ، وهى أيضاً كلمة مأخوذة من الحمية العصبيه . .

ففى سورة الأعراف « وأعرض عن الجاهلين » .

وفى سورة الفرقان قوله تعالى « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً »

وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم لأبى ذر الغفارى وقد عير رجلا بسواد أمه « إنك إمرؤ فيك جاهلية » . .

يقول عمرو بن كلثوم :

ألا لايجهلن أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا

عمرو بن هشام (أبو جهل) من بنى عبد الدار الذين تقاسموا وبنى عبد مناف - ومنهم الرسول ﷺ - وظائف السدانة والسقاية والرفادة . . الخ

ولم تكن هذه الوظائف بالوظائف القبلية تراها فى كل قبيلة من قبائل العرب وإنما برزت فى عهد قصى بن كلاب وأستلزمها وجود الكعبة بمكة وقيام الحج إليها.

وقد قصد بها تيسير الحج لما فى ذلك من الآثار المادية ورواج التجارة فى بلد غير ذى زرع . . وبنو عبد الدار وبنو عبد مناف أبناء عمومة يربطهم رباط الدم والجنس والأصل . .

غير أن خلافاً دب بينهما فانقسمت قريش إلى معسكرين متنافسين إنحاز إلى كل معسكر بعض بطون قريش وقبائلها .

إنضم إلى بنى عبد الدار بنو مخزوم بن يقظة، وبنو سهم بن عمرو بن هصيص وبنو جمح بن عمرو ، وبنو عدى بن كعب . . وتسمى حلفهم « الأحلاف » .

أما معسكر بنى عبد مناف فضم بنى أسد بن عبد العزى ، وبنى زهرة بن كلاب وبنى تيم بن مرة وبنى الحارث بن فهر . . وتسمى حلفهم « المطيبين » ذلك أنهم وضعوا طيباً بجفنة وضعوها فى فناء الكعبة وغمسوا أيديهم فيها ومسحوها فى جدار الكعبة توكيداً لحلفهم . .

واشتد النزاع بين المعسكرين وتعرضت مكة لحرب تكاد تقع . .

ورأى الملأ من قريش أن يحسموا النزاع وأن يزيلوا الخلافات فاستقر رأيهم على أن تكون الرفادة والسقاية لبنى عبد مناف وما عدا ذلك فلبنى عبد الدار . .

ورضى كل فريق بذلك وإن كان قد ثبت على حلفه . .

وكان بنو عبد الدار يشعرون — حتى قبل البعثة المحمدية — أن بنى عبد مناف يفوقونهم فى كثير من المكارم وحب الناس لهم وتقديسهم رغم أن بنى عبد الدار كانوا يبذلون العطايا والعطاء .

لقد شعر بنو عبد الدار بالضيق يوم واقعة الحجر الأسود ، ذلك أن الذى حسم النزاع وحقن الدماء محمد وهو من بنى عبد مناف . .

فحين تهدمت الكعبة وكان قد داهمها سيل شديد ، تكاتفت قريش لإعادة بنائها وأوشك خلاف أن يدب بين صفوف القبائل وقد إنتهت من البناء أيهم ينال شرف وضع الحجر الأسود مكانه من الكعبة . .

لقد تنافست البطون والقبائل على السواء وتحزبت لذلك بنو عبد الدار — ومنهم أبو جهل — وبنو عدى وعقدوا بينهم حلفاً ألا يدعوا أحداً يقوم بذلك العمل المشرف العظيم إلا هم وألا يسمحوا لغيرهم بنيل هذا الشرف ، وقدموا جفنة بها دم غمسوا أيديهم فيه توكيداً لحلفهم فسموا « لعقة الدم » .

وكاد الأمر يصل إلى حرب ضروس تهلك الحرث والنسل وتجرى الدماء أنهاراً ..

لكن شيخهم صاح فيهم أن يحكموا أول داخل من باب السلام .

لقد إشرأبت الأعناق وتعلقت العيون بالباب وخفقت القلوب وساد القوم قلق بالغ . .

من يا ترى سيكون المحظوظ ! ؟ من ياترى سيكون السعيد ! ؟ من ياترى سيحسم النزاع ويحقن الدماء ! ؟

من هو أول داخل من باب السلام ؟

إنه محمد عليه الصلاة والسلام . .

كانت الرسالة لم تنزل بعد على محمد فتكسبه روعة المحكمين وجلال التحكيم ، لكنه كان فيهم الأمين . . كان فى قومه التقى الورع الشجاع .

كانت حياة محمد فى قومه واضحة لا غبار عليها مقروءة لم يروا فيها شبهة ولم يبصروا زيفاً . . ما كذبهم ولا خانهم ولا ظلم أحداً ولا اعتدى على حرمة من الحرمات . . لذا كانوا يلقبونه بالأمين .

فارتضاه القوم حكما ينزلون عند مشورته ويأخذون برأيه لينهوا خلافاتهم وشحنائهم ويحسموا النزاع ويحقنوا الدماء .

وفى روعة وجلال وبين إعجاب القوم وتقديرهم ورضاهم يأمر محمد بثوب فيأتون به ويضع الحجر الأسود فى هذا الثوب ويطلب محمد إلى كل قبيلة أن تمسك بطرف من الثوب فأستجابت القبائل وتضافرت الجهود ورفعوا جميعاً الثوب حتى وصلوا إلى الكعبة فتناوله محمد صلى الله عليه وسلم وهو من بنى عبد مناف تناوله بيده الشريفه حيث وضعه فى مكانه من الكعبة .

فهدأت ثائرة النفوس وسكنت إلى جانب الحق والواقع وخرجت القبائل راضية مرضية يسودها الحب ويجمعها السلام .

غير أن إنساناً واحداً من هذه المجموعة البشرية الضخمة لم ترقه فكرة محمد

ولا تدبيره الحسن . . إن إنساناً واحداً تكالبت عليه شياطين الغيرة فافقدته التعقل وألزمته جانب التهور والتمرد . . من بنى عبد الدار هو أبو جهل .

كلما مر بملأ يذكرون محمدا وواقعة التحكيم . . كلما جاست فى نفسه أشباح العداوة وجاشت فى وجداناته تيارات البغضاء .

وحدثت واقعة أخرى غير واقعة الحجر الأسود حملت معها مرة أخرى ذروة التنافس بين بنى عبد الدار — ومنهم أبو جهل — وبين بنى عبد مناف — ومنهم الرسول الأعظم — تلك الواقعة هى زواج محمد بخديجة بنت خويلد .

كانت على سمعة طيبة فسموها الطاهرة .

سعى لخطبتها سادة قريش وطرقوا بابها فردتهم ردا جميلا . .

لم يسع إليها محمد كما سعى القوم .

لكنها سعت إليه بمالها ثم بحبها .

لقد سمعت بصدقه وأمانته وطهارة قلبه وفؤاده وتواضعه وتقديسه للحق لايحيد عنه قيد أنملة وهذه أمور ترغبها النفوس الطيبة إذ الطيبون للطيبات وهذا ما حدا بخديجة لتسعى إلى محمد بمالها يتجر لها فيه فلما تبينت أصوله المتينة وأخلاقه الكريمة وصفاء سريرته وطويته وحبه للخير أحبته حبا جما فعرضت عليه الزواج منها فأرتضاها زوجة وارتضاها شريكة حياته . .

إن العربى يحس بالمرارة عندما يرغب فى شىء فلا يرقى إليه ويرى غيره وقد نال هذا الشىء .

إنه يشعر بكرامته وقد أهدرت . .

ولا شك أن أبا جهل قد أصابته هذه المرارة وصادفته هذه الغيرة . . وقد لا يكون للأمر من أهمية وقد تكون هذه الواقعة عادية أمام أبى جهل لكن البطل محمد لكن الأمر يتعلق ببنى عبد مناف فكان لابد لنفس أبى جهل أن تغض وكان

لابد لنيران الحقد أن تشوى قلبه فهذا أمر يتعلق بالشرف والمكانة ولأن مكة ظلت زمنا طويلا تتحدث عن زواج محمد بخديجة وبتحكيمه فى الحجر الأسود . .

وتطورت المنافسة وبلغت القمة عندما جاء محمد صلى الله عليه وسلم من بنى عبد مناف وأعلن لقريش أنه يوحى إليه وأنه رسول الله إلى الناس أجمعين . .

يذكر الزهرى أن أبا جهل وجماعة معه فيهم الأخنس بن شريق إستمعوا إلى قراءة الرسول فى الليل فقال الأخنس لأبى جهل .

« يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد . . . »

فأجابه أبو جهل :

(تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف . . أطعموا فأطعمنا . . وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا . . حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسى رهان ، قالوا منا نبى يأتيه الوحى من السماء فتى ندرك هذا . والله لا نسمع له أبداً ولا نصدقه أبداً) .

لقد نبتت فى قلب أبى جهل شجرة الحقد وأينعت فأعماه الحسد وأخذته الغيرة بعيداً عن التصديق برسول الله فجابهه وعاداه وتآمر عليه لينال منه وتجددت العداوة والمنافسة القديمة بين بنى عبد الدار وبنى عبد مناف وتحركت العصبية لكنها تمثلت فى طرف واحد وتجسدت طاغوتا واحداً وهو فرعون هذه الأمة عمرو بن هشام أبو جهل الذى يملك من أسباب هذه الحرب الجديدة بينه وبين محمد يملك الكثير من الأسباب . .

هو من الثراء والجاه والصاحب ما يدفعه غير هياب ولا وجل فى عناده فى ضلالته فى ترفعه فى كفره . . لكنه كثيراً ما تولى مذعوراً وكثيراً ما رأى ما أفزعه وأخافه . .

ثم هو لديه من الوقت الذى لاحساب له ولا يعرقل طوفان عدائه . .

هو لا يسعى إلى عمل أو مكسب وإنما الذى يقوم بهذا الأمر عبيده الذين يكدون ويكدحون من أجله ويتصببون عرقاً لجلب المال له . . وتجوب تجاراته الأقطار ويأتيه ربحها وهو جالس فى دار الندوة حيناً وبين القوم أحياناً يعبث معهم ويعبثون معه . . حياتهم جميعاً لهو ولعب وتفاخر وافتراء وكذب . . يدبرون المؤمرات ويكيدون للناس كيداً وينتهكون الحرمات . .

ثم هو ينطلق أحياناً مع رفقائه فى رحلات خلوية يدرسون البادية وقد زعموا الصيد وما هو بالصياد وإنما للإغارة وإرهاب العباد . .

والرجل وهذا حاله هو ومن معه لم يكن يرضيهم أن يتبدل الحال فى مكة ولم يكونوا ليستجيبوا لدعوة محمد بسهولة . . بل كانوا يرون فى معاندتهم للحق والواقع ما يرضى غرورهم ويتفق وأنانيتهم أن تظل الأمور كما نشأوا عليها وعاشوا فيها وأن يبقوا حبيسى عقائد بالية وأفكار عفنة . .

(بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون . وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون [1]) .

لذلك فإنه كان يؤرق أبا جهل أن يرى الدعوة الإسلامية وقد التف حول رايتها أحياء وأوفياء من الرجال والنساء وأنها تكسب فى كل يوم قلوبا ويسعى إليها الناس . .

---

(١) الزخرف

أبو جهل ورسالة محمد :

كان محمد صلى الله عليه وسلم يترك أهل مكة إلى غار حراء الليالى الطوال معتزلا الناس على دين إبراهيم عليه السلام حتى أنهم قالوا عنه (إن محمداً عشق ربه) .

ولم يكن أهل مكة يجهلون هذا الأمر . . لكنهم فى الوقت نفسه لم يكونوا يتصورون أنه سيخرج عليهم ذات يوم بدين جديد يأمرهم بترك عبادة الأوثان إلى عبادة الواحد الديان فيغير بذلك معتقداتهم وعاداتهم ويأخذهم إلى عوالم أخرى أرحب وأوسع من المعرفة اليقينية . . وأن الله هو خالق السموات والأرض وخالق كل شىء وهو القاهر فوق عباده ويرسل السحاب وأنه سبحانه وتعالى يحي ويميت ويعز ويذل ويرزق ويمنع وأنه لذلك المعبود وأن لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . .

لم يكن أهل مكة يتصورون ذلك . .

وأن داعيا إلى الله سيدعوهم . .

وأن موحدا لكلمتهم سيضمهم تحت لوائه وراية واحدة راية الإسلام . . وأنهم سيجتمعون تحت قيادته ليسمعوا الدنيا بدينهم ويعطوا العالمين فيضا من نورهم وأنوارهم وعلمهم وثقافاتهم . .

لقد كانت مكة قبل هذا قبائل منفصلة لكل منها رياستها . .

وها هو محمد يدعوهم جميعاً إلى رياسته وسماع كلمته والائتمار بأمره والإنتهاء بنواهيه لأنه من عند الله (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى . .)

ففى صباح يوم وأهل مكة على عاداتهم هذا فى تجارته وذاك فى صناعته .

إذ بمحمد يقف على الصفا ينادى

(يا بنى عبد مناف)

فتسرع الناس سواء من بنى عبد مناف أو غيرها لتقف على الخبر

ومحمد يقول :

(أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟!

فأجاب القوم (أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذباً قط) .

فيقول الرسول الاعظم .

« إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » .

« إن الرائد لا يكذب أهله أبدا ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءاً ، وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا » .

ويتهيأ أبو جهل للتوثب على محمد .

لكن أبا لهب كان أسبق منه حين فاجأ الرسول بقوله .

« تبا لك يا محمد ألهذا دعوتنا ؟ » وأخذ حجرا ليرميه به . .

يريد بذلك أن يستهزىء بمحمد ويسخر منه ويصرف الناس عن سماعه فأنزل الله فيه سورة كاملة ذما وخزيا . .

« تبت يدا أبى لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى نارا ذات لهب وامرأته حمالة الحطب . فى جيدها حبل من مسد . »

وقد ذكر الله إمرأة أبى لهب لأنها كانت توغر صدر الزوج الضال أبى لهب وتحمله على عداوة الرسول وتوقد بينهما نيران الخصومة فهناك عذاب ينتظرها هى وزوجها . .

من ذلك الحين لم تغمض لأبى جهل عين حقد وحسد ولصب نفسه قائدا لحملة الشرك ضد محمد واستعمل من وسائل العنف والمكابرة ما يشفى مرضه وحقده ويرضى غريزة الشر عنده .

أقام حمامات الدم يعذب العبيد والضعفاء الذين سارعوا الى محمد لما رأوا فى دينه حريتهم وسعادتهم وأما نيهم . .

أقام سفاهة يعارض بها القرآن ويستهزىء به .

بات هجاء سبابا لعانا يثلم أعراض الأشراف الذين أسلموا لله . .

أضحى لصا يسطو وينهب تجارة من ينضم إلى محمد . .

أمسى قاطع طريق المؤمنين الى دار الأرقم بن أبى الأرقم يسدها على من يقصدون بحر النور ينهلون منه ويغترفون . .

فرعون والفقراء :

أقام أبو جهل حمامات دم يعذب العبيد والمستضعفين الذين سارعوا الى محمد واستخدم فى تعذيبهم وإيذائهم الكثير والمثير ليرتدوا عن دينهم فكانوا أشد إلتصاقا به وثباتا عليه وحبا لله ولرسوله ولم يبالوا بهذا العذاب أو تخور قوائم الدينية . .

أمسك بعمار بن ياسر وأبيه وأمه يعذبهم عذابا شديدا فلا يجد إلا قلوبا مؤمنة إيمانا قويا متينا إنفصلت كلية عن عالمها المادى إلى عالم أرحب عالم الروح، ويشدد العذاب على سمية ظنا منه أنها أضعف من أن تصبر على هذا العذاب فإذا بها تتجلد وتصبر وتتحمل الألم والآلام وتؤثر الصمت دون تأوه أو تضجر اللهم إلا عينان ترمقان أبا جهل فتنفذان إلى قلبه وتهزانه هزا عنيفا إلى أن تعييه الحيلة فيتقدم الى سمية راجيا متوسلا . .

« أذكرى آلهتنا بخير وأذكرى محمدا بسوء » .

إنها لا تستجيب إلى توسلاته .

إنها لا تبالى بالعذاب من جديد .

تشيح بوجهها وتنفر منه ولا تجيبه فيسبها سبا مقذعا ويركلها بقدميه الآثمتين ويطيش صوابه فيأخذ بحربة ويطعنها فى فرجها فتفيض روحها الى بارئها تشكو له ظلم الحاقد وعبث الحسود . .

يتجه أبو جهل إلى زوجها وإبنها ولكنهما أشد ما يكونان إيمانا وأقوى عقيدة وأرشد إلى الحق وأرسخ قدما فى إسلامهما وإيمانهما . .

وبينما يمر الرسول عليه السلام ويرى وحشية أبى جهل وتنمره فتدمع عيناه ويقول « صبراً صبراً آل ياسر فموعدكم الجنة » .

ويبتسم ياسر إبتسامة الرضا فها هو الرسول يبشره بالجنة غاية مناه ومنتهى آماله . .

وتقتل الابتسامة أبا جهل فيمسك بحجر كبير يرضخ به رأس ياسر فيموت . .

رحم الله ياسرا وأهله وألحقنا بهم فى جنات النعيم وأرانا أبا جهل فى السعير جزاء ما اقترفت يداه « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون(١) .

لم يعقد أبو جهل عن شركه . . عن كفره . . عن عناده . . عن حمامات الدم يسيل الدماء عزيزة كريمة تروى أرض مكة أرضا تود لو تميد بأبى جهل وتبتلعه . .

ولم يكف عن أذاه تجاه آل ياسر .

إنه يتجه بسياط العذاب إلى عمار وأسياخ من الحديد محماه يكوى بها جسده ذلك الجسد الطاهر لكن النار لا تجدى مع من خافوا نار الآخرة ولا العذاب يثنيهم فهم يعلمون أن عذاب يوم القيامة أكبر إن المؤمن الصابر لاتثيره المحن ولا الإحن ولا ترهبه قوى الشر الباغية وتستطيب نفوسهم العذاب « يبتلى المرء على قدر دينه »(٢) وعمار على دين متين وإيمان قوى فلو جمعوا عذاب الدنيا بأسرها ما نالت منه ولا نالت من إيمانه « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » (٣) .

وأيضا يمر الرسول بعمار فيسأله عمار أن يدعو ربه ليخفف عنه بعضا من هذا العذاب فيتوجه إلى الله رب العالمين . . « اللهم إجعل النار بردا وسلاماً على عمار كما جعلتها بردا وسلاماً على إبراهيم » . .

لقد أصبحت النار بردا وسلاماً على عمار فلم يعد يحس بها أو يشعر بحرارتها . .
ويصعق أبو جهل وهو يرى فريسته لا تتأوه والقائم عليه لا يتضجر ولا تجدى معه النار . .

---

(١) آل عمران (٢) حديث شريف (٣) ابراهيم

وفجأة تنفرج أساريره وهو يسمع عمارا ينطق بالعبارة المشهورة « أذكر آلهتنا بخير وأذكر محمدا بسوء » . .

لقد كان عمار فى غيبوبة ثم هو يفيق فيندم على ما بدر منه ويبكى بكاء حارا فيسأله أبو جهل الخبر . .

ما يبكيك ياعمار ؟ ! فيجيبه لقد أكرهتنى على الكفر والضلال فيمتدحه القرآن « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان » (١)

وينفذ صبر أبى جهل ولا يجد مفرا من أن يترك عمارا ذلك المؤمن حقا إلى غيره أضعف شوكة وأهون قناة وألين عزيمة . .

ويحرر أبو بكر عمارا ضمن من كان يسعى لتحريرهم بالشراء من سادتهم . .

وتتحول الآلام إلى ابتسامات ورضى وسعادة وعزة .

لكن نفس هذه الآلام تحول دون إلتقاء عمار برسول الله فى دار الأرقم ابن أبى الأرقم ويتخذ بيته مسجدا هو أول مسجد أقيم لعبادة الله . .

لقد كان الإسلام ضياء أنار ظلام القلوب ونارا صهرت قيود عبوديتهم ومساواة تجتمع فيها البشرية على سواء لا تمايز ولا تفاخر بحسب أو نسب لافرق بين غنى وفقير ولا أسود وأبيض كل الناس لآدم وآدم من تراب ومقياس التفاضل ومعيارة هو تقوى الله . .

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (٢)

لذلك فقد أسرع إلى الاسلام الذين تاقت نفوسهم للحرية وارادوا لأنفسهم العزة والكرامة . .

وألتقى بمحمد الكرماء من القوم مهما كان حالهم فإن الكريم من كرمت نفسه وتطهرت وليس الكريم من كثر ماله وعياله وسوف نلتقى بأناس كان

---

(١) النحل (٢) الحجرات

لهم حظ من المال والولد ولكنهم سفلوا وهوت نفوسهم إلى قاع الشرك والنفاق وتجردت من كل معانى الأخلاق « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين(١) » إلتقى محمد بالكرماء من القوم ينشدون الأمن ويبغون الأمان والطمأنينة وهم يؤملون نعيم الله الدائم واشتروا الحياة الآخرة بدنياهم الزائفة الباهتة دنيا الأصنام والأزلام وما فيها من رجس وجور وظلم وظلام . .

فرعون ومعسكرات التعذيب :

إتخذ أبو جهل من الأعوان ما يساعدونه على تعذيب المسلمين المؤمنين فهو وحده لا يقدر على أداء هذه القضية قضية ظلم الإنسان لأخيه الإنسان . .

ونعجب عندما نرى واحداً من أعوانه هو عمر بن الخطاب قبل أن يستقر الإيمان فى قلبه ويتخذ طريقه للنور ويعز الله به الإسلام(٢) . .

يروى المحدثون أن عمر بن الخطاب كان يشرف على تعذيب إمرأة تدعى زنيرة تلك التى قال عنها المشركون (لو كان فى الإسلام خير ما سبقتنا إليه زنيرة) فذمهم القرآن ونزل فى زنيرة (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه(٣)) .

كان عمر يضربها حتى يضيق ذرعاً بها فيركن إلى الراحة وهو يقول لها :

« اعتذر إليك ما تركتك إلا مللا » .

وأبو جهل واقف يشجع عمر وزنيرة قابضة على دينها وإسلامها وإيمانها بيد

---

(١) البقرة

(٢) كان رسول الله يدعو « اللهم أعز أحب العمرين اليك عمرو بن هشام أو عمر بن الخطاب » لما يعلم من قوتهما وأهميتهما فكانت الدعوة مستجابة لعمر بن الخطاب لأنه كان أقرب إلى الحق .

(٣) الأحقاف

من حديد رحمها الله ومثيلاتها رحمة واسعة كن خير مثال للمرأة فى صدر الإسلام. وكن على درجة كبيرة من العفة والعفاف والطهر والصلاح .. وكن يفقن الرجال فى عزمهن فاستحققن نعيم الله وأستحققن التقدير والإعجاب ولعلنا نلتقى بهن فى جنات رب العالمين يحكين لنا روعة الإيمان ومنتهى حلاوته . .

والمرأة اليوم لا تريد لنفسها ما أرادت زنيرة وأقرانها .

تريد الدنيا تتمتع بها ولا تعبأ بنعيم الآخرة فالله ندعو لهن بالهداية آمين .

لقاء مع أصول السيادة :

كان عمر بعد الإسلام يقول : (أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا ـ يعنى بلالا ـ) وبلال كان هو الآخر له نصيب كبير كآل ياسر من العذاب الأليم . .

لقد أوثقوه بالسلاسل وطرحوه أرضاً يسحلونه على حصاها الملتهب فى الظهيرة. ويتمزق جلده ولا يسمع منه جلادوه إلا قوله « أحد ، أحد » .

نعم .. فالله أحد : « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . . . »

وكان أبو جهل وأعوانه يسمعون هذه الكلمات كأنها الصواعق تنزل بهم. وكأنها الرماح تخترق صدورهم وتبهرهم شجاعة الرجال وثباتهم على عقيدتهم وإيمانهم القويم . .

لقد ناشده سيده أمية بن خلف أن يسكت عن قوله أحد أحد فلا يطاوعه .

ويمر أبو بكر فيقول لأمية إلى متى تعذب هذا المسكين فيقول أمية (إنك قد أفسدته على) فيساومه أبو بكر ويشتريه ويعتقه .

وبفضل الإسلام يصبح بلال سيداً .

ويستحق السيادة لما ناله من العذاب الأليم وما تحمله وصبر عليه (وبشر

الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون(١)) .

فرعون والسراة(٢) :

أسلفنا لمحات من موقف أبي جهل مع المستضعفين وأنهم انتصروا عليه .

أما مع الشرفاء فقد جرب قناته، فأصابتهم واستجابوا له ذلك أنه كان يقول للواحد منهم أتترك دين آبائك وهم خير منك . . لنسفهن حلمك ولنقبحن شرفك . . وإذا كان تاجراً هددوه والله لنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك .

إذن فقياس الشرف ليس بالمال والجاه وإنما بالقوة الروحية والقدرة على تحمل الأذى لقد كان الوليد بن المغيرة من أغنى رجالات مكة وأكثرها ولداً حتى أنه كان يسير وخلفه بنوه إثنا عشر يافعاً . .

وكان الرجل لما آتاه الله من المال والولد وبسط له في الرياسة والجاه لا ينطق إلا حقاً .

وسمع الوليد بن المغيرة رسول الله محمد يتلو من آيات الله البينات ما فيه شفاء النفس وطب القلوب ودواء لما في الصدور . . فقال لقومه من بني مخزوم (والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن . . وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة . . وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وأنه يعلو ولا يعلى عليه) .

وتشعبت الرواية وتسربت هذه الشهادة الحقة من مجلس المغيرة وتلقتها قريش لتعلن (لقد صبأ الوليد إلى دين محمد) .

وانبرى أبو جهل يعالج الأمر في أوله وقال (ياقوم أنا أكفيكموه) .

---

(١) البقرة

(٢) إن الشريف هو الشريف بنفسه ولو انتمى لسراة عبد مناف على الجارم

دموع التماسيح :

توجه أبو جهل إلى الوليد بن المغيرة وجلس تجاهه حزيناً كئيباً فسأله (ما بك يا أبا الحكم ؟) فيرد أبو جهل (ياعم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا) وفى استغراب وتعجب يسأله الوليد (ولم ؟ !) .

يجيبه أبو جهل (أتيت محمداً لتعوض من قبله) .

ثار الوليد ثورته وهاج لكرامته وقال لأبى جهل (لقد علمت قريش أنى من أكثرها مالا وأكرمها بيتاً وأعزها ولدا فكيف يعوضنى محمداً ؟ !

وفى تذلل ومسكنة ودموع خادعة يقول أبو جهل(فقل فيه قولا يبلغ قومك إنك منكر له) .

وهكذا أفلحت الدموع واستجابت لها النفوس المزعزعة العقيدة السقيمة الوجدان . .

وهكذا وسط موجات من الخديعة وتيارات من الفتنة أغرق أبو جهل الوليد ابن المغيرة فى بحر الشرك والجحود ويم الكفر والضلال . . فانطلق الوليد كالثور الهائج وسط جمع من قريش قائلا . .

« تزعمون محمداً مجنوناً فهل رأيتموه يهوس ؟ ! وتقولون إنه كاهن فهل رأيتموه يتكهن ؟ !

وتقولون إنه شاعر فهل سمعتموه يتعاطى الشعر قط ؟ ! وتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب ؟ ! » .

فقالوا فى كل ذلك « اللهم لا » .

ثم صاحوا به « إذن فما هو » ؟ !

ففكر قليلا وقطب وجهه ثم بسره وقال « ما هو إلا ساحر . . أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله والوالد وولده والسيد وعبده » .

واهتز الوادى فرحا وهلل أبو جهل وصاح « ألا ترون محمداً ساحراً ؟ !

وكما ندد القرآن بأبى لهب فى سورة المسد ندد بالوليد بن المغيرة فى سورة المدثر « ذرنى ومن خلقت وحيداً . وجعلت له مالا ممدوداً . وبنين شهوداً . ومهدت له تمهيداً . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيداً . سأرهقه صعوداً إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر . سأصليه سقر . وما أدراك ما سقر . لا تبقى ولا تذر . لواحة للبشر . عليها تسعة عشر » .

وكما كان الحال مع الوليد بن المغيرة فقد كان عتبة مع بن ربيعة الذى كان على قدر من الهيبة والمكانة بين قريش وأن قريشاً لمكانته هذه فوضته إقناع محمد ليعدل عما ذهب إليه . . وقبل عتبة هذه المهمة وتوجه إلى رسول الله ﷺ وقال له (يا ابن أخى إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد الملك ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئى تراة لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه . . »

فلما فرغ عتبة ورسول الله يبتسم قال (أقد فرغت يا أبا الوليد ؟) قال (نعم) قال الرسول) فأسمع منى قال: (إفعل) فقرأ صلوات الله عليه وسلامه صدراً من سورة فصلت وعتبة منصت ولما وصل رسول الله إلى قوله تبارك وتعالى (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) فلما سمعها عتبة ناشده أن يكف فقد خيل إليه أن صاعقة من السماء ستحيق به وتأتى عليه . .

وعاد عتبة بن ربيعة إلى قومه فقال بعضهم (نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به) ولما جلس إليهم قالوا : (ما وراءك ؟ أجابهم) ورائى أنى سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط . . ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة . . يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها فى وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ عظيم فإن تصبه

الغرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به) .

فقال القوم : (أسرك أبا الوليد بلسانه) فقال : (هـــذا رأيى فاصنعوا ما بدا لكم) .

وتعهده أبو جهل بالحيلة مرة والتهديد تارة أخرى والتضليل أيضاً حتى أضله السبيل وأغواه .

وما لبث عتبة أن نسى ذلك اللقاء الكريم بينه وبين رسول الله . . وتلاشت المعانى الحلوة فى سماء النسيان .. ولم يعد يذكر صاعقة عاد وثمود .

فهاجم الرسول وسبه

وكما فعل أبو جهل بالوليد ونجح سلك سبيله مع عتبة وفلح وأوقعه فى نفس العمى الذى عناه الله بقوله: (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك أياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى(١) .

فرعون والغرباء :

تعرض أبو جهل للغرباء الذين كانوا يفدون مكة يتأكدون مما تناقلته الأخبار عن محمد المختار ويتبينون حقيقة الأمر ومنهم من أنبأت كتبهم بنبي يأتى فى هذا الزمان . .

فقد تعرض لجماعة من الخزرج وصاح فيهم .

(يا معشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا ـــ يعنى محمداً ـــ تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينه منكم . .

---

(١) طه

فهب مشركو الخزرج يحلفون له بالله أنه ما كان من شيء وما علموه .

وكأن الله أراد أن يخزى أبا جهل فقد كانت الحقيقة مع وفد من الأوس والخزرج . وعندما تبين ذلك كانوا قد رحلوا وقد بايعوا الرسول حين قالوا: نعم والذى بعثك بالحق لنمعنك.. فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة (السلاح) ورثناها كابراً عن كابر .)

وتعرض لوفد قدم من الحبشة .. مجموعة من النصارى جاءوا مكة يستطلعون لأقوامهم شيئاً عن محمد فقد نقلت له العيون التى ترصد خطوات من يتجه إلى محمد وتأكد للعيون أن هذا الوفد قد جلس إلى محمد واستمع إليه وأنهم آمنوا بمحمد .

ففور انصرافهم لقيهم أبو جهل وقال لهم (خيبكم الله من ركب بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه . . ما نعلم ركباً أحمق منكم . .) .

وآذاهم أبو جهل أذى شديداً ليصدهم عن سبيل الله وعما آمنوا به .. لكنهم كانوا على الحق متمسكين وعن الباطل معرضين فقد رأوا فى محمد علامات نبوته وأمارات رسالته .. ووجدوا الله عنده . . وكلهم بما أثلج صدورهم وأبان لهم طريق السعادة والعزة وهو رسول الله (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى) .

ولقد كان أبو جهل يرجو أذى لدين محمد فإذاً بأفعاله الخبيثة وسلوكه المعيب قد نبه هذا الوفد إلى حقده وعدائه وأنه من ذلك الصنف الذين آذوا عيسى عليه السلام وأقاموا الجدر فانهارت أمام دعوة الحق والسلام . . ولعلهم لذلك استقبلوا المهاجرين الأولين إلى الحبشة خير استقبال ومنعوهم من الأذى .

وكما تعرض لوفد الحبشة كان يتعرض أيضاً لغيره من الوفود لأنه كان يخيفه أن يمتد النور ويبسط ضياءه على أكبر رقعة أما وقد استجاب بعض أهل مكة فلا يصح أن يستجيب لمحمد أحد من خارج مكة فإن الأمر جد خطير لو اتخذ أحباء وأنصاراً وكسب أرضاً خارج مكة .. أن هذا سوف يكيد أبا جهل متاعباً ومشاقاً ويتطلب منه جهداً أكبر . . فهو بتصديه للوفود يمنى نفسه كل هذه

المتاعب ولكن الله قد كتب للدعوة المحمدية أن تشرق شموسها على العالمين وأن يستظل بظلها الناس أجمعون .

فرعون والقرآن :

رأى أبو جهل أن للقرآن تأثيراً كبيراً فى قلوب الناس وأفئدة الصالحين وأن إذاعته لها عشاق ومستمعون . . فماذا عساه فاعل ليمنع الناس من سماع القرآن . . إنه كان نفسه يسترق السمع ورسول الله يتلو القرآن وأدرك خطورة إنتشار هذه الآيات البينات . . ولا بد من وسيلة سماعيه تقابل إذاعة القرآن وذيوعه .

اتجه أبو جهل بفكره إلى النضر بن الحارث الذى كان يعرف أخبار الفرس وقصص اسفنديار ورستم وهو أيضاً ممن حارب الدعوة الإسلامية باللهو لما عرفه من ميل النفوس نحو الترف واللهو فقد كان لا يسمع عن أحد يدخل الإسلام حتى يأتيه ليثنيه عن دينه الجديد بكل وســيلة حتى أنه كان ينطلق به إلى داره ويسلمه إلى جارية من جواريه لتطعمه وتسقيه وتغنى له والنضر بن الحارث يقول له هذا خير لك مما يدعوك إليه محمد من صلاة وصوم وجهاد فى سبيل دعوته وفيه نزل القرآن الكريم :

(ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين . وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقراً فبشره بعذاب أليم)(١) فاتفق معه أبوجهل أن يتخذ مجلساً يجاور مجلس الرسول ﷺ وأن يروى للناس ما يعرف من الأخبار والقصص ليجذب الناس إليه ويبتعدوا عن مجلس محمد وفيه قال القرآن (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون فلنذيقن الذين كفروا منهم عذاباً شديداً(٢))

وسلك أبوجهل مسلكا آخر واتجه إلى آيات القرآن التى هى فوق إدراك العرب

---

(١) لقمان .   (٢) فصلت .

وفهمهم إذ القرآن معجزة وفيه من الآيات ما هى على جانب من الإعجاز كبير فأخذ أبو جهل يتصيد هذه الآيات ليسخر منها ..

حدث لما أشار القرآن إلى جهنم وحراسها وأنهم تسعة عشر (عليها تسعة عشر) والمقصود بذلك الزبانية الموكلون بحفظها .. قال أبو جهل (يا معشر قريش يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم فى النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر وأنتم أكثر عدداً .. أفيعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم ..)

فنزل فى ذلك القرآن الكريم (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتو الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتو الكتاب والمؤمنون وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا . كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هى إلا ذكرى للبشر)(١) .

وأيضاً لما نزل قول الله تعالى (أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم إنا جعلناها فتنة للظالمين) .

قال أبو جهل فى سخرية (إن شجرة الزقوم التى يتهددكم بها محمد إنما هى عجوة يثرب بالزبد ولئن أتيناها لنتزقمنها تزقما) .

ثم تساءل فى بلاهة عن شجرة الزقوم وكيف تنبت فى النار فنزل فى هذا (إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ذق إنك أنت العزيز الكريم(٢) .

وهكذا كان أبو جهل يسخر من القرآن ذلك الكتاب المبين المقول فيه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير(٣) (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)(٤)

وهو من عند الله ليس بالهزل وإنما هو قول فصل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين والذكر الحكيم وهو

---

(١) المدثر . (٢) الدخان . (٣) هود (٤) الأنبياء

الصراط المستقيم وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس الألسنة ولا تتشعب معه الآراء ولا يشبع منه العلماء ولا يمله الأتقياء ولا يخلق(١) على كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه .

فرعون يتعرض للرسول :

حاول أبو جهل أن يجرب سياسة التهديد والأذى مع الرسول عينه فلم يفلح فقاد قومه إلى أبى طالب عم الرسول ـ والذى كان يحميه ـ يشكون من محمد وقد سفه أحلامهم وعاب آلهتهم وسب آباءهم ورجوه أن يقنعه أن يترك هذا الدين « يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين » .

وفى حنان بالغ ينصح أبو طالب محمداً أن يتخلى عن دينه ويصف له القوم وقد جاءوه يملؤهم الغضب وتجتاحهم الثورة وأنه لذلك يخاف عليه وينصحه « يا ابن أخى إن قومك قد جاءونى وكلمونى فى أمرك فابق على وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق » .

لكن محمداً فى بسالة الأنبياء وشجاعة الرسل ووثوقه بدينه وربه قال قولته المشهورة الخالدة على مر الزمان « والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هـذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » ثم بكى الرسول بكاء الذى تخلى عنه أقرب الناس إليه فدمعت عينا أبى طالب وقال « اذهب فوالله لن أسلمك أبداً » مما أثلج صدره وطيب خاطره .

ولما يئس أبو جهل من نصرة أبى طالب أخذ يتعرض للرسول ويقود حملة من السخرية منه والتغامز عليه والتنديد به . . وفى ذلك نزل القرآن « إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون . . وإذا مروا بهم يتغامزون وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين . وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون .

---

(١) يبلى .

يوما أرسلوا عليهم حافظين . فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون . على الأرائك ينظرون . هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون(١) .

وفى كل يوم كان أبو جهل يعترض طريق الرسول وينهاه عن الصلاة عند الكعبة . . ولكن الرسول لا يلق بالا « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » مما أثار أبا جهل فقال له مرة « ألم أنهك عن صلاتك هاهنا » وما كان محمد لينتهى فأغلظ الرسول فى الرد على أبى جهل وهدده فعز على أبى جهل أن يسمع أسلوب التهديد من محمد وسرت فى أوصاله حمية الجاهلية وظن أن ماله وعديده يغنيان عنه شيئاً فقال لمحمد صلى الله عليه وسلم « يامحمد أتهددنى وأنا أعز أهل الوادى ناديا » فنزل فيه قول الله تبارك وتعالى أول ما أنزل من القرآن فى سورة العلق « أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى . أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى أرأيت إن كذب وتولى . ألم يعلم بأن الله يرى . كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية ناصية كاذبة خاطئة . فليدع ناديه سندع الزبانية . كلا لا تطعه واسجد واقترب .

ويبيت أبو جهل فى نفسه أمراً . لقد طوعت له نفسه قتل الرسول .

وبينما هو متخذ مجلسه مع القوم إذ به يعلن هذه الرغبة ..

« يامعشر قريش إن محمداً قد أتى ما ترون من عيب آلهتكم وتسفيه أحلامكم وسب آبائكم .. وإنى أعاهدكم لأجلسن عليه بحجر لا أطيق حمله فإذا سجد فى صلاة رضخت به رأسه . . فأسلمونى عند ذلك أو أمنعونى وليصنع بى بنو عبد مناف ما بدا لهم .

إن الرجل قد عيل صبره وهانت عليه الدنيا فى سبيل الخلاص من محمد ..
لقد أتى بحجر كبير وجلس ينتظر الرسول والقوم يرقبونه ماذا عساه يفعل ..
هاهو الرسول يسجد .. وينهض أبو جهل ويقبل نحو الرسول .

---

(١) المطففين .

وأخرست المفاجأة ألسنة القوم وعقدتها . . لقد رجع أبو جهل عن غايته ورمى الحجر وأدار وجهه إلى قومه ممتقعاً مصفراً وحاله مضطرباً فسألوه .. مالك يا أبا الحكم فيجيبهم :

« قمت إليه لأفعل ما قلت لكم فلما دنوت منه عرض لى فحل من الإبل والله ما رأيت مثله قط هم بى أن يأكلنى .

ولما ذكر ذلك للرسول قال (ذاك جبريل ولودنا لأخذه) .

لم يتخذ أبو جهل من ذلك عبرة وعظة ويتأكد له أن ما عليه ضلال أيما ضلال وأن ما عليه محمد حق وصدق . . فقد حدث ذات مرة أن جاء بصخرة ليطرحها على الرسول وكان إذ ذاك ساجداً وقريش تنظر إليه فيبست يداه إلى عنقه واستغاث بهبل فلم ينقذه هبل . وكيف ينقذه هبل وهو حجر أصم ليس فيه حياة فلا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عن الإنسان شيئاً .

وكان أبو جهل عندما يلقى الرسول يرتعد لرؤيته ويتهرب من مواجهته رغم حرصه الشديد على مجابهته وعناده والنيل منه .. ويروى المحدثون أن إعرابياً كان له دين عند أبى جهل وهو يسوفه ويماطل فى سداده فلجأ إلى قومه فقالوا له وهم يسخرون ويتغامزون (إذهب إلى محمد بن عبد الله فهو الذى يستطيع أن يقضى لك دينك) .. وصدق الإعرابى القوم وتوجه إلى الرسول يعينه على اقتضاء دينه فلم يقعد الرسول عن إجابة الرجل واصطحبه إلى أبى جهل ودق الباب فخرج أبو جهل إليهما وهو يرتعد، ولما رأى الرسول قال فى إنكسار ماذا تريد يا محمد فيقول الرسول (أن تقضى لهذا الرجل دينه) ويغيب أبو جهل قليلا ثم يعود بدين الرجل .

وسمعت قريش بذلك فدهشت للأمر وسألت أبا جهل فرد عليهم (لقد دق على الباب فخلت أن البيت يهوى فوق رأسى فخفت على نفسى .

وينسى أبو جهل هذه الوقائع وما تحمل من المعانى الكبرى فلم يقعد عن أذى الرسول ويقول يوماً لجلسائه أيعفر وجهه بين أظهركم - يعنى هل يصلى أمامكم -

فقيل له نعم فقال (واللات والعزى لئن رأيته لأطأن رقبته) وأتى الرسول وهو يصلى فعاد مهرولا ينكص على عقبيه ويتقى بيديه وقال لقومه بينى وبينه خندق من نار وهول وأجنحة . . ولما سئل رسول الله قال فى هذا الشأن (لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضوا عضوا . .) وهذا تأكيد لقول الله عز وجل (كلا لاتطعه واسجد واقترب) والله كفيل بحمايته من عبث الكفار وتآمرهم . . إنه فى رحاب الله ومع الله فالله خير حافظا وهو ارحم الراحمين .

فرعون يكذب المعجزات

لقد جرب أبو جهل عديدا من الحيل وكثيرا من الألاعيب ومحمد يزداد صلابة والدعوة الإسلامية تتخذ طريقها فى ازدياد وانتشار ، والاتباع يزداد عددهم يوما بعد يوم ويتكاثرون . .

وأراد أبو جهل أن يعجز الرسول فأتاه فى وفد من وجهاء قريش فيهم العاص بن وائل والوليد بن المغيرة والأسود بن عبد يغوث والأسود بن عبد المطلب وطلبوا منه آية فأشار إلى القمر فانشق القمر فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه فقال الرسول (اشهدوا) . .

قال بعضهم (رأيت الجبل بين فرجتى القمر) وقال كفار قريش وعلى رأسهم أبو جهل حين ابصروا هذا الآية (سحركم ابن أبى كبشة) فقال رجل منهم (إن كان محمد قد سحر القمر فإنه لايبلغ من سحره أن يسحر الأرض كلها فاسألوا من يقدمون عليكم من بلد آخر هل رأوا هذا ، فسألوا الوافدين فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك . . فقالوا (هذا سحر مستمر) ونزل قول الله تبارك وتعالى (إقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر . وكذبوا. واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر . ولقد جاءهم من الأنباء مافيه مزدجر حكمة بالغة فما تغنى النذر)(١)

---

(١) القمر

أبو جهل والمعجزة الكبرى

كان أبو جهل يمر على الرسول من قبيل السخرية فيسأله من وقت لآخر ماذا نزل عليه من القرآن وما حاله مع جبريل عليه السلام . . والرسول لايبخل عليه بهدى أو تبيان ويتلو عليه الآيات البينات علها تستقر فى قلبه أو تنتشر عن طريقه:

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت اتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ماكان يعرف طيب عرف العود (٢)

وذات يوم سأل الرسول أأوحى إليك الليلة فيجيبه الرسول فى ثبات طار له صواب ابى جهل (أسرى بى الليلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ..)

واهتبلها أبو جهل فرصة يريد أن يشكك فى الرسول وعقيدته ولم يفصح للرسول عما فى قلبه ذلك أن الإسراء إلى المسجد الأقصى يستغرق مسيرة شهر من الزمان وليست برهة من الزمن كما يقول محمد وقال أبو جهل (يا محمد إن أتيت قومك اتخبرهم ما اخبرتنى به ؟)مخافة أن ينكر محمد ما قال وإذ الرسول يجيبه . . نعم . . وكأن أبا جهل قد مسه جن فأخذ يصيح بقومه ليجتمعوا عليه وتوافدت الناس على ابى جهل وحلقت العيون واشرأبت الأعناق تنظر ما الخبر وتكلم أبو جهل . .

ياقوم إن محمدا يقول إنه أسرى به الليلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . . ياقوم ماذا تنظرون ؟ !

وأدهشتهم المفاجأة فمنهم من وضع يده على فيه ومنهم من أطلق ضحكة ومنهم من وضع يده على رأسه وآخر فغرفاه فقد استولت عليهم الدهشة وأذهلتهم المفاجأة . . ذلك أن محمدا لم يسبق له زيارة المسجد الأقصى أو السفر إليه والمسافة بعيدة والسفر شاق فأنى له بالمشاهدة وأنى له بوصفه إن هم سألوه أن يصف لهم هذا المسجد . .

---

(٢) أبو تمام

يا محمد إن كنت ما تقول حقا وأنه قد أسرى بك من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فهل لك أن تصف لنا المسجد الأقصى . .

فبهت الذى كفر . . ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخذ يصف لهم المسجد باباً باباً وشباكا شباكا فقد أمر الله ملائكته أن يحملوا المسجد ليراه الرسول فلا يختلط عليه الأمر ..

إن الذين زاروا المسجد الأقصى أكثر من مرة لا يقدرون على وصفه الوصف الدقيق. ولعلهم بدأوا يتخذون طريقهم إلى دعوة محمد . . لكن أبا جهل لم يصدق محمداً فى أمر هذه الرحلة الربانية .. واتجه إلى أبى بكر ليشككه فى صديقه ويسأله (ما قولك فيما يرويه صاحبك ؟!) ويجيبه أبو بكر دون تردد إجابة الواثق بصديقه (إن كان محمد قال ذلك لقد صدق) فيعيد أبو جهل السؤال (أتصدقه على ذلك) فيجيب أبو بكر (إنى لأصدقه على أبعد من ذلك .. إنى أصدقه بخبر السماء . .) يقصد نزول القرآن .

ماذا لدى أبى جهل من سهام العداوة يرمى بها رسول الله . . ماذا يفعل وقد نفذ ما لديه وضاقت عليه الأرض بما رحبت .. إنه يتهاوى ويصغر حتى بدا قزماً أمام البطل العظيم ..

كان حرياً به أن يستسلم وألا يظل سادراً فى غيه وضلاله إما أن يؤمن برسالة محمد أو يتركه وشأنه دون مضايقات وترهات . . لكن الحية تشج رأسها وينسلخ جلدها وذنبها باق تنبض فيه حياة الغدر والاعتداء ..

أبو جهل وسياسة التجويع :

لجأ أبو جهل إلى أبعد ما يتصور الإنسان من ظلم أخيه الإنسان ..

نعم . . لجأ إلى سياسة التجويع وذل المقاطعة وتحزيب قريش كلها ضد من آمنوا بمحمد فلا يتعاملون معهم ولا يتزوجون منهم ولا يزورونهم أو يتخاطبون معهم .

لقد شاهد أبو جهل بعين الحقد والكراهية محمداً ومن حوله رجال آمنوا به

وبما أنزل عليه ورأى القبائل تأتى لمبايعته فاتجه بلسان يقطر غلا وكمداً إلى قريش .. (ياقوم إن محمداً وأمره قد طبقا الآفاق . . وآلهتنا تتعرض للخطر وابتعاد الناس عنها .. فهل أنتم معى فى مقاطعة بنى هاشم .. نقاطعها فى شعبها لا نبايعهم ولا نتزوج منهم ولا نتعامل معهم) فأومأ القوم برءوسهم فأوحى إليهم أن يكتبوا ذلك فى صحيفة يعلقونها على أستار الكعبة ..

وعبر ثلاث سنوات من هذه المقاطعة تحمل الرسول وبنو هاشم مرارة هذا الحصار اضطروا خلالها أن يأكلوا أوراق الشجر من شدة الجوع ، ونضبت الأثداء فتصايحت الأطفال وتشققت الشفاه من الظمأ والقوم مجمعون على مقاطعتهم وحصارهم ..

قد عين أبو جهل رقباء على مداخل شعب بنى هاشم يتهدد كل من تسول له نفسه أن يمد يد المعونة لهؤلاء المحاصرين . . وتعرض حكيم بن خزام لأذى قريش فقد كان يريد عمته خديجة بنت خويلد فى محنتها فتعلق به أبو جهل وقال (أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم . . والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة . .) وأبى أن يطلق سراحه حتى اشتبكا ونال كل منهما الآخر ..

إن رحمة الله واسعة فقد كانت هناك نفوس طيبة رحيمة تتسلل تحت جنح الظلام حاملة الزاد إلى بنى هاشم ..

وتحركت القلوب تجاه هذه المحنة فقد كان يخزى هشام بن عمرو بن عامر ابن لؤى ما يرى فلم يطق صبراً وتوجه إلى زهير بن أمية المخزومى وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب وقال (يازهير أترضى أن تأكل الطعام وتشرب الشراب وأخوالك بحيث تعلم ؟.)

فقال له (ويحك ما أصنع وأنا رجل واحد أما والله لو كان معى رجل آخر لقمت بنقض الصحيفة) .

قال هشام (أنا الرجل الآخر) قال له (أبغنا ثالثاً) قال (أبو البخترى ابن هشام) قال (أبغنا رابعاً) قال (زمعة بن الأسود) قال (أبغنا خامساً)

قال (المطعم بن عدى) وتعاهدوا على نقض الصحيفة لأنهم جميعاً كانوا يتأثرون بهذا الحصار ويأسفون لأخبار المحاصرين وتتحرك فى قلوبهم عاطفة الرحم وتسرى فى عروقهم حمية الانتصار للضعفاء ..

قال زهير (أنا أبدأ بها) فجاءوا إلى الكعبة وقريش محدقة بها ونادى زهير يا أهل مكة إنا نأكل الطعام ونشرب الشراب ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة ..)

فقام أبو جهل إليه وقال (كذبت والله لا تشق) فقال زمعة (أنت والله أكذب ما رضينا كتابتها حين كتبت) وقال أبو البخترى (صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها ولا نقار عليه) فقال المطعم بن عدى (صدقتما وكذب من قال غير ذلك نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها) .

لقد أخذ أبو جهل وتعجب وكيف يجتمع هؤلاء على مثل هذا الأمر الذى أقرته قريش ثلاثة أعوام وأوجس خيفة أن تكون هناك مؤامرة أو أن يكون محمد قد سحرهم من جديد فقال (هذا أمر قضى بليل تشوور فيه بغير هذا المكان) .

وساد القوم هرج وانقسموا بين مؤيد ومعارض بين مؤيد لما ذهب إليه زهير وأصحابه ومعارض لنقض الصحيفة وأبو جهل يرغى ويزبد ويتوعد فإنه كان قد أيقن الانتصار وأن محمداً ومن معه سيعودون إلى دين آبائهم وإلى ضلالهم القديم ذلك الضلال الذى يعجب أبا جهل وأمثاله ممن قست قلوبهم وكأنما عناهم الله بقوله حين قال فى بنى إسرائيل (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وأن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وأن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون)[1] .

الصحيفة تكذب أبا جهل :

كان أبو جهل قد قطع عهداً مع إخوان السوء من قريش أن يقاطعوا بنى هاشم

(١) البقرة .

وأكدوا ذلك العهد فى صحيفة علقوها على الكعبة .. وحدث ما حدث من تجويع قوم آمنوا بالله . . وأراد الله أن يخزى هؤلاء المعتدين فسلط (الأرضة [١] على الصحيفة فلم تترك إسماً لله كانوا قد أوردوه بالصحيفة إلا لحسته وأبقت فى الصحيفة على كلمات الشرك والقطيعة والظلم (٢) .

وأطلع الله نبيه ورسوله على ماحدث بالصحيفة فذكر ذلك إلى عمه أبى طالب وأسر إليه بما أطلعه ربه فقال أبو طالب (لا والثواقب ما كذبتنى) وانطلق ومجموعة من بنى عبد المطلب حتى أتوا المسجد وهو حافل بقريش فلما رأتهم قريش ظنت أنهم خرجوا إليهم من شدة الحصار وما أصابهم من ضعف يسلمون محمداً إليهم .. وتكلم أبو طالب فقال (قد حدث أمر لعله أن يكون بيننا وبينكم صلحاً فأتوا بصحيفتكم) وقد طلب منهم الصحيفة خشية أن يطلعوا عليها فيخفوها وقد تبينت لهم المعجزة الربانية . . فأتوا بها معجبين لا يشكون أن محمداً مدفوع إليهم وقال أبو جهل فى خيلاء (قد آن لكم أن تفيئوا وترجعوا عن خطر أنهك قواكم) فقال أبو طالب وهو يتسلم الصحيفة (لأعطينكم أمراً فيه نصف . . إن إبنى أخبرنى ولم يكذبنى أن الله عز وجل برىء من هذه الصحيفة التى فى أيديكم وأنه محا كل اسم له فيها وترك غروركم وقطيعتكم فإن كان ما قال حقاً فوالله لا نسلمه إليكم حتى نموت عن آخرنا وإن كان الذى يقول باطلا دفعناه إليكم فقتلتموه أو استحييتموه) قالوا فى صوت واحد (قد رضينا) وفتحوا الصحيفة فوجدوها كما أخبر رسول الله . . فصاح أبو جهل (هذا سحر من صاحبكم) وارتكسوا وعادوا إلى أسوأ ما يكونون ..

وخرج بنو هاشم من شعبهم وخالطوا الناس وما كان الله يهلك قوماً آمنوا به . . إنما يفتح أبواب رحمته مهما تكالبت قوى الشر والبغى تريد أن تنال منهم (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من

---

(١) نوع من الحشرات الصغيرة دون النملة .

(٢) أو على العكس أكلت كلمات الشرك والقطيعة والظلم وأبقت على (باسمك اللهم) .

بعده وهو العزيز الحكيم)[١] (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون(٢)) .

حتمية الهجرة :

لم تكد أصداء الحصار تتلاشى بآلامها وآثارها من نفسية محمد المصطفى . .

ولم يلبث كثيراً بعد نقض الصحيفة المشئومة حتى أمتحن بوفاة زوجته المخلصة فقد كانت خديجة زوجة صالحة مؤمنة يجد فيها الرسول ملاذه فى شدته والصدر الحانى فى محنته ..

كما ابتلى من قبل بوفاة عمه أبى طالب الذى كان يصد عنه الكيد والأذى ويحول بينه وبين خصومه وأعدائه .

فقد بذلك أعز اثنين كانا يحميانه ويمنعانه . . وفقد التأييد المعنوى النفسى القريب ممثلا فى زوجته خديجة ، والتأييد الأدبى والمادى ممثلا فى عمه أبى طالب..

فتألم الرسول ألماً شديداً وهزه الخطب الجلل حتى سمى هذا العام «عام الحزن».

لقد كان رسول الله بشرا مثلنا تجرى عليه المقادير كما تجرى علينا ويحزن من أعماق نفسه كالرجل منا يفقد فى عام واحد زوجته الصالحة وعمه البار فلا يملك إلا الألم والشجن .

نعم كان رسول الله مثلنا . . وضاق صدرا بمكة لأنها خلت من الأحباء المخلصين إلا قليلا وضاقت هى الأخرى به ممثلة فى عصابة أبى جهل .

---

(١) فاطر . (٢) النور .

وفى الوقت الذى كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعرض دينه ونفسه على القبائل التى تفد مكة « من رجل يحملنى إلى قومه لأبلغ رسالة ربى فإن قريشاً قد منعونى أن أبلغ رسالة ربى » .

كانت قريش تعقـــد الاجتماعات تتداول الأمر وتستعرض كيفية القضاء على محمد ..

وانتهت قريش إلى التخلص من محمد بالقتل الجماعى وفيه تشترك البطون عامة بفتى منها يضربه مع الآخرين فيقتلونه ويتفرق بذلك دمـــه بينهم ويستحيل الثأر له . .

وتأمن مكة بذلك ما كانت تتوقعه من حرب أهلية .. ويعود إليها من هاجر منها من أبنائها وينتظم دولاب العمل فيها وتعود إليها وحدتها التى كانت عليها وتسير مرة ثانية مع ما استقرت عليه من نظم وتقاليد عاشت بها وتزعمتها . .

وما الله بغافل عما يعملون .. سبحانه لاتأخذه سنة ولا نوم .

فأوحى إلى عبده ونبيه مادار بين القوم وأمره بالهجرة ..

واستطاع محمد بمهارته الفائقة أن يفلت من مؤامرة القوم ومطاردتهم وكان موفقاً فى خروجه من مكة وهجرته كل التوفيق الأمر الذى يؤكد زعامة هذا النبي ورجاحة عقله وفكره ..

لقد كانت هناك ثلاثة مداخل لمكة رئيسية :

أولها غربى بين جبلى قعيقعان وعمر وهو يصلها بجدة.

والآخر جنوبى فى مسفلة مكة يصلها باليمن.

والثالث شمالى فى معلاها يصلها بمنى وعرفات والطائف

ومن ذلك يتضح أن الطريقين الأول والأخير هما أقرب الطرق إلى المدينة من الطريق الثانى وأن محمدا إذا أراد أن يهاجر إلى المدينة كما كان الاتجاه السائد فعليه بهذين الطريقين يسلكهما إلى المدينة . . ولم يكن أحد يتصور أنه سيسلك الطريق الوسط فإنه إلى اليمن وليست دار هجرته . .

لكن الرسول اتخـــذ طريقه من جهة الجنوب حيث غار ثور على بعد ستة كيلو مترات من مكة والطريق إليه شاق أدمى قدمى الرسول وصحبه .

ووصل الرسول وصاحبه غار ثور وظلا فيه ثلاثة أيام . .

كان عبد الله بن أبى بكر ينقل إلى الرسول وصحبه أخبار قريش فقد كان يذهب إليهما تحت جنح الظلام ويقضى الليل عندهما . ثم فى الصباح الباكر يتخذ طريقه إلى مكة فيظن أهلها أنه كان معهم لم يبرحهم .

وكانت أسماء بنت أبى بكر تنقل إليهما الطعام ..

وكان هناك ثالث هو عامر بن أبى فهيرة مولى أبى بكر ووظيفته أن يزيل آثار عبد الله وأخته بأن كان يروح على الغار بأغنامه بعد أن يرعى نهارا فيأخذ النبي وصاحبه ماشاءا من ألبانها ولحومها ويتابع سيره بالقطيع دون أن يترك وراءه أثرا يدل على سير إنسان . .

وانقضت الأيام الثلاثة وانقطع الرصد وخرج النبي وصاحبه من الغار إلى طريق الساحل ولم يسلك الدروب المطروقة وإنما سلك الطرق الوعرة التى لايسلكها الناس . . ثم سلك الخرار متجها إلى الشمال حتى هبط العرج ثم وادى العقيق إلى قباء فالمدينة وكلها طرق شاقة كانت مضرب الأمثال عند العرب فى الوعورة مما يدل على مهارة فائقة وطاقات كبرى من الصبر وتحمل المشاق . .

وكانت عناية الله تلحظهم فإن قريشاً لم تترك سبيلا ولا مظنة اختباء إلا بحثته بحثه ونقبت .

ولكن الله كفاه مكرهم وأعزه ونصره « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم »[1] .

فرعون والمؤامرة الكبرى :

ونحن بصدد الحديث عن أبى جهل وقد شاق الرسول فلابد من إيراد ما دار فى دار الندوة تفصيلا لنتبين دور أبى جهل فى هذه المؤامرة الكبرى مؤامرة الاعتداء على رسول الله وقتله . .

فهما كانت دعوة المرء ومهما كانت عقيدته فلا يرقى إليها قتله . .

« قتل إمرىء فى غاية جريمة لاتغتفر »

ولعل هذا الأمر كان بالغ الأهمية والخطورة حتى اجتمعت القبائل لدراسته وأخذ قرار به .

لقد رأت قريش الدعوة المحمدية تنمو وتكبر وأحست بالخطر ، فالشباب والشيوخ والعبيد وقد أسلموا بمحمد يفلتون من أيديهم ويتركون مكة بلدهم يتركونها كارهين ، فالعربى ليس من السهولة بحيث يترك وطنه إلى بلد آخر ونذكر هنا كيف أن محمداً ﷺ وهو يهاجر من مكة نظر إليها قائلا ومودعا « والله إنك أحب بلاد الله إلى الله وإنك أحب بلاد الله إلى . ولولا أن أهلك أخرجونى منك ماخرجت » .

ورأى أبو جهل أن يكبل كل من يفكر فى الهجرة بالحديد وأن يعيد من جديد حمامات الدم ومعسكرات التعذيب .. ورغما من ذلك فقد هاجر كثيرون » .

---

(١) التوبة .

ورأى أبو جهل يوحى شيطانه أن يتجه إلى رأس المسلمين وإمامهم فيمنعه من الخروج من مكة ويحول بينه وبين دار هجرته التى كانت قد تسربت أنباؤها وذاعت عن أهل المدينة (يثرب) يصبحون ويمسون وهم يترقبون قدوم المصطفى عليه السلام حتى أن الشمس كانت ترهقهم ولكنهم كانوا يستطيبون العذاب فى انتظار أعز الأحباب . يحول بين الرسول وبين قوم قد يكونون جبهة عدائية تنال من قريش . . واجتمع أبو جهل بالسادة من قريش بدار الندوة للتشاور فى هذا الأمر الخطير وكيفية الوصول إلى حل ينتهون عنده . .

وجاءت الآراء تحمل الأحقاد والحسد على رسول الله فمن قائل « نحبس محمداً فى الحديد ونغلق عليه باباً ثم نتربص به حتى يموت كما مات أمثاله» ولكن أبا جهل سفه هذا الرأى وقال « ما هذا برأى لئن حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه فيوشك أن يثب عليكم أصحابه فينتزعوه من أيديكم » .

ومن رأى آخر يقول (نخرجه من ديننا فننفيه فإذا خرج عنا فلا نبالى أين ذهب) فقال الشيخ الذى يجلس جوار أبى جهل ويتفق دائماً معه — ولعله مسيلمة وسيجىء الحديث عنه هو الآخر كرجل شاق الرسول — « ما هذا لكم برأى ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال » .

وأردف أبو جهل فقال (إن لى رأياً فيه ما أراكم وقفتم عليه إن رأيى أن نختار من كل قبيلة شاباً فتياً جلداً نسيباً وسيطاً فينا فنعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً ثم يعمدون إلى محمد فيضربونه ضربة رجل واحد فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دم محمد فى القبائل كلها فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب العرب جميعاً ورضوا بالفداء ففدينا) .

وينتهى القوم عند رأى أبى جهل وضلاله . .

ويرأس أبو جهل هؤلاء الفتية ويوزعهم حول بيت الرسول كسوار لا يمكن اختراقه . .

ولكن الله ألهم رسوله فعهد إلى على بن أبى طالب أن ينام فى فراشه فلما تبين

للمتآمرين أن محمداً قد ترك البيت وأن النائم فى فراشه هو على بن أبى طالب الذى أرعبهم وخافوه وتولوا مدبرين ينقبون عن محمد فى جنبات مكة وفى مسالكها.

لقد طاش صواب أبى جهل فوعد بالعطايا والمكافاة من يأتى بمحمد حياً أو ميتاً وتذهب المكافاة بالعقول ويجرى الناس هنا وهنالك بحثاً عن الرسول دون جدوى وتقود الخطى أبا جهل ومن معه إلى غار ثور لكن يد الله فوق أيديهم فنسجت على باب الغار خيوط العنكبوت وأمر الله الحمامة أن تطمئن على بابه ورغم إصرار الدليل على أن الأقدام قد انتهت عند الغار إلا أن أبا جهل هز رأسه فى غير اقتناع وأمرهم بالعودة وفى داخل الغار كان الرسول وصاحبه يستمعان إلى محاورة أبى جهل مع الدليل فيخاف أبو بكر على الرسول ويقول « لو نظر أحدهم تحت رجليه لرآنا » لكن محمداً المؤمن برعاية الله ونصره يقول لصاحبه « ما ظنك بإثنين الله ثالثهما ».

ويعود أبو جهل يتميز غيظاً وقد فلت منه محمد فيتوجه إلى بيت أبى بكر وتفتح له أسماء فيسألها « أين أبوك يابنت أبى بكر » فتجيب « لا أدرى أين أبى » فيلطمها الرجل لطمة قوية يطير لها قرطها فاحشاً معتدياً آثماً . فاجابته مرة ثانية والله لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت ثوبى ما كشفت لك عنه فاغرب عنى بوجهك القبيح ولو فرض أن أبا جهل قد استمع لرأى القصاص (الدليل) ووجد محمداً وصاحبه فى الغار فإن الأمر لم يكن على أهمية وكان الرسول إلى طريقه وأبو جهل إلى طريقه ذلك أن الله الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى قادر أن يامر الريح والملائكة فتحمله وصاحبه إلى غايته وانه لا يعجز الله ذلك إنما مسالة العنكبوت لها من المدلول ماهو أوسع وأعمق وأبلغ وهى مسالة تكون معجزة لمن أراد أن يتعظ أو أراد إيماناً .

أبو جهل يقترب من النهاية :

وإذا كانت المسافة التى تفصل محمداً عن أبى جهل أميالا طويلة فقد

ظل يرنو إليه بعين الحقد والحسد يريد أن ينال منه أو يسمع عنه مكروهاً .

وتجيء الفرصة حينما يأتى رسول من أبى سفيان يبلغ مكة أن قافلة أبى سفيان يتهددها المسلمون فصرخ فى أهل مكة (اللطيمة اللطيمة قافلتكم تعرض لها محمد وأصحابه فالنجدة النجدة) وقافلة أبى سفيان لا تعنى تجارته وحده وإنما تجارة أهل مكة قد أسهم فيها الجميع كالعادة .

والخالطون فقيرهم بغنيهم حتى يكون غنيهم كالكافى

ولأول مرة يحس أبو جهل برعشة إنه يريد أن يسير لإنقاذ القافلة ومحاربة محمد لكن شيئاً ما يثبت قدمه إلى الأرض والقوم قد تهيأوا وأصروا على إنقاذ القافلة ومحاربة محمد . . ووصل أبو سفيان سالماً بالقافلة إلى مكة بعد أن سلك بها طريق البحر بعيداً عن هدف المسلمين ..

ورأى العقلاء أنه لا داعى للخروج . . لكن أبا جهل ناداه مصرعه فقال (لابد وأن نخرج إلى بدر نقيم بها ثلاثا نشرب الخمور وندق الدفوف وتغنى القيان حتى يعلم محمد أننا لا نخافه) .

ولما رأى أبو جهل تخاذل البعض هيجهم كعادته فأمر عامر بن الحضرمى أخا عمرو بن الحضرمى الذى قتلته سرية من المسلمين أمره أن يطلب دم أخيه فصاح الملعون وكشف عن إسته (عورته) وصرخ واعمراه فحمى القوم وساروا للقاء المسلمين .

ولما ساروا قليلا أشار عتبة بن ربيعة وكان على جانب من التعقل بالرجوع فإنه ليس من داع أن تسفك الدماء وخاف على قريش التفرق والقطيعة إذا قتلوا أقاربهم .

فقال أبو جهل (إن ذلك ليس به ولكنه عرف محمداً وأصحابه أكلة جزور وفيهم إبنه فقد تخوفكم عليه) وسار الركب إلى بدر .

ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون(١) .

يوم بدر ونهاية فرعون :

كان المسلمون يعلمون برحف قريش إليها

ودعا الرسول ربه أن يلحق بشرذمة الشر الوبال والخسران واستفتح بأبى جهل باعتبار أنه رأس العداء والمحرك للنفوس والظامىء لأذى محمد وقائد الضلال إليه فقال « اللهم اقطعنا للرحم وأتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة » .

لقد كانت السيوف تبحث عن أبى جهل فى المعركة كل مسلم يريد أن يناله واشتدت الحرب وانهزمت قريش فقال الرسول (من ينظر لنا ماصنع أبوجهل) فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه معوذ وعوف إبنا عفراء ويعانى النزع الأخير فوضع ابن مسعود رجله على صدره وكأنه يذكره يوم كان عبد الله ابن مسعود راعى غنم وأسلم وأراد المسلمون أن تسمع قريش القرآن فتطوع ابن مسعود لذلك وتوجه حيث الملأ جالسون وقرأ عليهم شيئاً من القرآن فصاح أبو جهل (ماذا يقرأ ابن أم عبد ـ لقب ابن مسعود ـ) ولطمه لطمة قطعت أذنه فرجع إلى أصحابه والدم يسيل منه فاشفقوا عليه فقال ابن مسعود (لوشئتم لفعلت الغداة مثل ما فعلت اليوم (تذكر هو وأبو جهل هذه الواقعة وقال له ابن مسعود (الآن تموت تحت قدمى ابن أم عبد تحت قدمى راعى الغنم) .

ومات أبو جهل على هذه الصورة التى تستحقه فاحتز عبد الله بن مسعود رأسه وذهب بها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فتبسم وأشار إلى الأذنين والرأس وفهم عبد الله بن مسعود المغزى وقال الرسول (الحمد لله الذى صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده) ثم قال لعبد الله انطلق فأرنيه فلما وقف عليه قال (هذا فرعون هذه الأمة) ثم وقف الرسول على قتلى قريش وقال

---

(١) آل عمران

(بئس العشيرة كنتم كذبتمونى وصدقنى الناس ، وخذلتمونى ونصرنى الناس ، واخرجتمونى وآوانى الناس) ثم أمر بهم فألقوا فى قليب ونادى (ياعتبة ابن ربيعة . . يا شيبة . . يا عمرو بن هشام يافلان يافلان هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقاً فقال عمر بن الخطاب (يا رسول الله ما تخاطب من قوم قد جيفوا) فقـــال الرسول (ما أنت بأسمع منهم ولكن لا ينطقون) .

وصدق فى أبى جهل وأمثاله قول الله تبارك وتعالى (إنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون) .

واستبقى الرسول جمل أبى جهل أربع سنوات حتى إذا خرج للعمرة ساقه هدياً ونحره يوم الحديبية .

عبد الله بن أبى بن سلول

رأس المنافقين

على بعد حوالى ثلاثمائة ميل شمال مكة . .

نلتقى برجل ثان شاق الرسول صلى الله عليه وسلم .

وصورة أخرى من صور العناد غير تلك التى قدمناها .

وفى بلد آخر غير مكة

فى يثرب . . .

كان الرجل قبل أن يدخل الرسول حياته وقبل أن تسمى يثرب إلى محمد ليهاجر إليها كان الرجل أشرف أهل يثرب نسباً وأرفعهم قدراً وأوفرهم ثراء الأمر الذى جعل قبيلتى الأوس والخزرج تجمعان على تنصيبه ملكا على يثرب يأتمرون بأمره وينتهون عند رأيه . .

لقد كانت الأوس والخزرج فرعين من أب واحد وأم واحدة نزحا من سبأ حتى أنهما كان يطلق عليهما أبناء قيلة نسبة إلى إممها قيـــلة بنت كاهل من قضاعة . .

وعلى الرغم من صلة الدم فقد كانا دائماً فى شحناء وحرب وتصارع وكان يوقد نار العداوة بينهما جيرانهما من اليهود الذين كانوا يرون فى نزاعهما ما يصدق معه المثل القائل مصائب قوم عند قوم فوائد .

واليهود ليس بمستغرب عليهم ذلك المسالك فهم أساس كل فتنة وأصل كل بلاء وهم الذين أسهموا فى العداء بين الأوس والخزرج وساهموا فى حروبهم وعدائهم . .

لقد كانوا سبباً فى حرب سمير وحرب كعب بن عمرو المازنى ويوم السراوة وحرب الحصين بن الأسلت ويوم الفجار الأول والثانى تلك الحروب التى امتدت عبر مائة وعشرين عاماً انهكت القوى . .

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم … وما هو عنها بالحديث المرجم(١)
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة … وتضر إذا ضريتموها فتضرم(٢)
فتعرككم(٣) عرك الرحى بثفالها(٤) … وتلقح كشافا ثم تنتج فتتئم(٥)
فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم … كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم(٦)
فتغلل لكم مالا تغل لأهلها … قرى بالعراق من قفيز ودرهم(٧)

ونقصد باليهود تلكم القبائل المسماة ببنى القينقاع وبنى النضير وبنى قريظة وثمة بطون أخرى وعشائر تذكر منها بنى القصيص وبنى ناغصة وبنى عكرمة وثعلبة وعوف . .

فلما كان يوم بعاث وهو من أيام العرب المشهورة كيوم ذى المجاز ويوم الفجار ، وفيه نالت الأوس من الخزرج وكثرت قتلاهم واصبحت يثرب تغلى بالخلافات وتضارب المصالح والاهواء الأمر الذى كان لابد معه أن تلجأ شيوخ هاتين القبيلتين إلى تسوية لهذا النزاع وسلام يحقنون به الدماء ويحميهما من الخطر اليهودى المحدق بهم والمترقب الفرصة للانقضاض عليهم . .

وكانت الأوس والخزرج بادىء ذى بدء قد تغلبتا على اليهود أيام كانتا على كلمة واحدة وأمرهما جميع . فتاقت النفوس إلى هذه الوحدة من جديد وإلى ما كانا عليه من تآلف وترابط . .

---

(١) غير المتحقق منه . (٢) تلتهب . (٣) تطحنكم .
(٤) ما يوضع تحت الرحى لاستقبال الشيء المطحون إما خرقة إما جلدة .
(٥) الناقة تضع فى عامين متتالين . (٦) كناية عن طول الحرب وشرورها .
(٧) أى يكون ثمارها الهلاك والموت وليس الازدهار والحياة .

واتجهت الأنظار فى هذا الجو المضطرب إلى عبد الله بن أبى بن سلول ـ وهو من الخزرج ـ استطاع أن يكسب لنفسه مركزاً أدبياً بموقفه الحيادى من النزاع والخلافات التى كانت بين القبيلتين . . وهما يتجهان إليه كرجل يمكن له أن يقودهما إلى ما يرجوان من سلام وأمن وأن يجمع كلمتهم على قلب رجل واحد فترهبهم اليهود ويعملون لهم حساباً وقدراً واعتباراً . .

وبدأت القبيلتان تنظم الخرز ليتوجوا عبد الله بن أبى بن سلول ملكا عليهم . .

شرارة النفاق وبداية الشقاق :

لم يكد يهنأ عبد الله بن أبى بما أجمع عليه القوم حتى وجدهم قد انصرفوا عنه إلى شيء يقال له الإسلام فضغن الرجل ورأى أن رسول الله ﷺ قد أستلبه ملكا . ولكنه اضطر أن يدخل كارهاً الإسلام مصراً على نفاق وضغن .

لقد كانت الأوس والخزرج يسمعان من جيرانهما اليهود فى يثرب أن نبياً يبعث قد أظله هذا الزمان وأن اليهود ستتبعه وتقتلهم قتل عاد وإرم . وتأثرت الأوس والخزرج بهذا الكلام لأن اليهود أهل كتاب وقد يكون هذا الكتاب قد أخبرهم بشيء من ذلك . .

وكان بعض الأوس والخزرج يحجون إلى مكة على عادة العرب دون اليهود فترامت إلى أسماعهم أخبار محمد وأنه رسول الله إلى الناس أجمعين فتهامسوا فيما بينهم . . (والله إن هذا الذى توعدنا به يهود فلا يسبقونا إليه) .

وتقابل بعضهم مع الرسول وكانوا ستة فلما تأكدت لهم أخبار اليهود فى محمد وتأكد لهم أنهم يجلسون يقينا فى حضرة رسول كريم قالوا لرسول الله (إن بين قومنا من العداوة والشر مابينهم وعسى الله أن يجمعهم بك وسندعوهم إلى أمرك فإن يجمعهم الله على الاسلام فلا رجل أعز منك) .

وعادوا إلى قومهم لينقلوا اليهم قصة لقائهم برسول هذا الزمان وأنه ﷺ على جانب كبير من العظمة والجلال والصدق وأنه عنده تحقيق أملهم وآمانيهم وخدتهم وتآخيهم .

وسمع عبد الله بن أبى الأخبار فغلى الدم فى عروقه وثار وأخذته الحيرة فإنه كان قد بات ملكا وأصبح الصبح وهو على غير ما أمسى وها هم القوم ينفضون من حوله ويتجهون إلى رسول الله ليجدوا عنده ما رغبوه فى عبد الله بن أبى بيد أن هذا الأخير لا يرقى البتة إلى رسول الله . . وهذا أمر يفهمه العرب فهم يقدرون الرجالات ويميزون الخبيث من الطيب والغث والسمين وهم على جانب كبير من الذكاء والفطنه وهم لا ينقادون بسهولة وراء عاطفة طارئة وإنما ينقادون وراء عقل وتمعن وخبر للأمور .

هـذا العربى الذى يسلك الصحراء ويقضى الليـالى ساهراً وراء رزق يصيبه ويعرف النجم ويعرف الأثار . ويقابله الرجل فيتفحصه ويعرف وجهته وغايته . مثل هذا العربى قد عرف محمداً يقينا وفضله على سائر الناس تفضيلا فسعى اليه سعياً حثيثاً وألح على الرسول أن يهاجر اليه وأن يتخذ من بلدهم دار هجرة ومقام .

وكتم عبد الله بن أبى فى قلبه نار الحقد على رسول الله ونمت فى صدره بذور النفاق والشقاق .

لم يك يستطيع أن يفعل شيئاً أمام ما سمع من أخبـار إلا أن يسكت قليلا ويتخذ مظهر الرجل الذى لا يعبأ بهذا الرسول وهذا النبى .

غير أنه ما كان يظن أبدا أن محمدا صلى الله عليه وسلم سيتخذ من يثرب داراً لهجرته وقلعة لدعوته ومركز إشعاع لرسالته . . لم يكن عبد الله بن أبى يظن هذا أو يسمح لفكره أن هـذا سيحدث ذلك أن المسافة بين مكة والمدينة من البعد وطول السفر وحين جاءه بعض القرشين يسألونه عن وفـد من الخزرج بايع الرسول قال لهم وهو يمنى نفسه بملك يثرب أن هـذا الأمر لجسيم ما كان قومى ليتفوتوا على بمثله .

وقفـة قصيرة :

قد يعجب البعض لماذا أختيرت يثرب دون بلاد الله دار هجرة الرسول

ولابد أن نوضح للقارىء الكريم ماعساه يرجو منا ومن غيرنا أيضاحا لهذه القضية الإسلامية الهامة . .

لقد اجتمعت قوى الشر وعصابة الشرك فى مكة وجابهت الرسول فاستعصى على الدعوة الإسلامية أن تلقى تأييدا كاملا . .

واتجه محمد صلى الله عليه وسلم إلى الطائف فكانوا أشد عداوة وأقوى شوكة من أهل مكة . . فما كاد الرسول يصل اليها حتى أمر سادتها وكبراؤها عبيدهم وصبيانهم أن ينالوا منه سبا ورميا بالحجارة وتخلى عنه أشراف الطائف وتخلوا بذلك عن أقدس خصال العربى وهى إكرام الضيف وحماية المستجير . . الأمر الذى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرنو ببصره إلى السماء مخاطبا ربه فى قوة وصبر وتحمل « اللهم اليك اشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس . . يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين . . وأنت ربى ، إلى من تكلنى . . إلى بعيد يتجهمنى . . أم إلى عدو ملكته أمرى . . إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى . . ولكن عافيتك هى اوسع لى . . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بى غضبك أويحل على سخطك . لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة الا بك »

إن لهذا الدعاء ترجمة واسعة عند الذين يودون معرفة أسباب انتصار الحق على الباطل وأن محمدا يقينا الرحمة المهداة لهذا العالم كله . .

لقد أمر الله ملك الجبال أن يخاطب رسوله « لوشئت أن أطبق عليهم هذين الأخشبين يقصد جبلى مكة لفعلت . . لكن محمدا الرحمة المهداة إلى العالم كله وصاحب الخلق العظيم يقول (اللهم اهد قومى فانهم لايعلمون) حقيقة الأمر ويجهلون ماوراء دعوتى ورسالتى من سعادة وسعود وعزة ورفعة ومنعة . .

وهو بهذا الموقف من الشجاعة والاحتمال ما جعل أعداءه يحنون الرءوس اجلالا وتقديرا واحتراما لقد رآه اعداؤه يعود اليهم لا يائسا ولا مهزوما بل اكثر ما يكون قوة وصلابة تؤكدان صدق دعوته وتنبئان عن انتصاره وسيادته

تقان ثباته على الحق وصبره على الأهوال إنما فى سبيل الله لا فى سبيل نفعه ونفسه ..

ولم يكن يستطيع محمد وقد استحال ميدان الدعوة فى مكة والطائف أن يتخذ ميدانا آخر يخرج به إلى خارج الجزيرة العربية فرسالته ترتكز أول ما ترتكز على الاقناع والاعجاز بالقرآن ولا يفهم هذه اللغة او يتقبلها غير العرب أنفسهم ثم هو جاء إلى هذه الجزيرة العربية ليخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم .

فاتجه بقلبه إلى يثرب .

ويثرب ليست بالغريبة على محمد فهى بلد أخواله من بنى النجار .

وقد زارها وهو صغير مع أمه لكنها ماتت فى الطريق عائدة إلى مكة عند (الأبواء) فاحتضنته أم أيمن وعادت به إلى مكة مرة ثانية . .

إذن فقد أصبحت يثرب فى خاطر الرسول ميدانه الجديد لرسالته وقد ساعده فى ذلك أن يهودها كانوا قد هيأوا الناس لفكرة الديانة السماوية فقد كانوا أهل كتاب والأوس والخزرج وثنيون فلما دعيت الأوس والخزرج إلى الإسلام كانتا أكثر استعدادا من وثنيى مكة والطائف وتقبلوا الدين الجديد وفهموه يضاف إلى ذلك أن كثيرا من زعماء الأوس والخزرج الذين كانوا موضع التبجيل والاحترام وأصحاب الكلمة النافذة فى يثرب والذى يمكن معه لمطامعهم الشخصية أن تقف فى وجه الدعوة المحمدية قد مات أكثرهم فى موقعة بعاث باستثناء عبد الله بن أبى بن سلول . . وثمة شىء أخير وهو أن أهل يثرب على عكس أهل مكة من الخير تمتلىء به نفوسهم واقتناع سليم تستجيب له عقولهم فاستجابوا لمحمد واصبح فيهم زعيما روحيا وقائدا عبقريا يقودهم إلى الفتح والانتصار والسيادة والاستقرار ، أما أهل مكة فقد كانوا يتكسبون من وثنيتهم حينما كان العرب يفدون إلى مكة من كل حدب وصوب بالعطايا والنذور قدمونها للآلهة الرابضة حول الكعبة فدعوة محمد تسلبهم هذه المكاسب .

من أجل ما تقدم فقد كانت وجهة محمد يثرب عندما هاجر ومن أجل ما تقدم بايع أهلها محمد .

عودة إلى ابن أبي :

قلنا إنه لم يكن يدور بخلده أن محمدا سيتخذ من يثرب دارا للهجرة ومن ثم لم يكن يهتم الاهتمام البالغ بمن بايعوا الرسول بيعة العقبة الأولى وعددهم نحو إثنى عشر رجلا وسيدتين .

لكنه أصبح ذات يوم فاذا به يسمع عن مبعوث للرسول يفقه الذين آمنوا بمحمد ويدخل غيرهم فى دين الله وهذا المبعوث موجود بيثرب قدم اليها من مكة .. ذلك هو مصعب بن عمير الذى ما لبث بيثرب قليلا حتى غزا الافئدة بكياسته وحسن تصريفه للامور ولباقته وفطنته وأنه يدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ويأخذ الأمر بالصراحة والصبر والاناة والرفق . .

وتزايد العدد إلى سبعين مؤمنا ومؤمنة . .

ورأى عبد الله بن أبى أن أسيد بن خضير سيد بنى عبد الأشهل وسعد بن معاذ وهما من اكبر زعماء الاوس وسعد بن عبادة الخزرجى يستجيبون لهذا السفير ويشهدون الا اله الا الله وأن محمدا رسول الله . .

لم يكن السفير يعتمد على قوة مادية وإنما على قوة روحية . .

ولم يكن من ورائه دولة كبرى تحميه وتمده بالعتاد .. ولكنه كان موفدا من رسول الله وهو فى بداية رسالته . .

كان يقول للناس إنما الله اله واحد ويشرح لهم الإسلام ويقول لهم إن رضيتم أمرنا قبلتمونا وأن كرهتموه كففنا عنكم ما تكرهون . . إن محمدا رسول الله اليكم يامركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وأن تخلعوا ماتعبدون من دونه من هذه الأوثان فانها لغو باطل لاتملك لكم نفعا ولا ضرا . .

إطراقة الثعلب :

ماذا عساه يفعل عبد الله بن أبى وقد سارع أهل يثرب إلى الإسلام بل تعدى الأمر أنهم وضحوا للرسول حقيقة أمرهم وما هم عليه من عداوة مع اليهود فربما سببت هذه العداوة حرجا للرسول فقد قالوا للرسول (إن بيننا وبين اليهود حبالا وإنا قاطعوها فهل رأيت إن أظهرك الله أن تعود لقومك وتتركنا) يقصدون بذلك أنهم لايودن العودة إلى مكر اليهود ومكايدهم وتآمرهم واستمالتهم بامثال عبد الله بن أبى ليسوموهم العداوة والبغضاء . .

لقد كان جواب الرسول «بل الدم الدم والهدم الهدم أسالم من سالمتم وأحارب من حاربتم . . » وهنا تاكد لعبد الله ابن أبى أن لامفر من الاستجابة إلى الإسلام وأن على عظمته وملكه السلام وأن لا سبيل إلى التصدى لهذا القادم الجديد فمقياس الانتصار ليس بالثراء والجاه وإنما الانتصار حقا بجمع الشمل والكلمة وحب القلوب ثم إن محمدا من أشرف العرب نسبا وقبيلة وليس بدخيل على العرب . .

كثير من الناس يعتقد أن المادة يمكن بها شراء النفوس والذمم وكذبوا لابارك الله بعد العرض فى المال وأنه عرض زائل أما الشرف . . أما الصدق . . أما الواقع فهم أقوى وأبقى وأرسخ .

كذلك فان ثراء ابن أبى وجاهه يهويان أمام دعوة محمد الغنية بكل صنوف الثروة وأصول السيادة «لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم . . ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم (١) .

لقد أراد الرسول أن يمتحن أهل يثرب الذين دعوه اليهم وإلى الهجرة من مكة ويختبر قواهم «بايعونى على أن تمنعونى إذا قدمت اليكم كما تمنعون نساءكم وذراريكم»

---

(١) الأنفال

فبايعوه على ذلك . .

وأكد العباس بن عبد المطلب هذا المعنى حينما أردف :

« إن ابن أخى فى منعة من فى قومه ولكنه رغبكم فإن كنتم جادين فبايعوه وإن كنتم غير ذلك فلا حاجة له بكم » فأعادوا تأكيدهم . .

وهاجر أصحاب الرسول ﷺ إلى المدينة وسبقوه إليها فلاقوا من أهلها كل ترحيب وإعزاز وإكرام وإكبار ذلك أنهم تركوا ديارهم وأموالهم وتجاراتهم فى سبيل الله وتحملوا من أجل دينهم وعقيدتهم المشاق والعنت والأذى . .

ووجد أهل المدينة فى هؤلاء المهاجرين الخلق الكريم والرضا والقناعة ووجدوا عندهم الإخلاص والوفاء والتضحية وهى من الأمور التى تكسب المزدان بها حب الغير له . . فلم يقعدوا عن تكريمهم وبذل ما يقدرون لإسعادهم ولم يبخلوا عليهم أو يضنوا بشىء حتى أن الرجل من الأنصار كان يشارك المهاجر ماله وتجارته وكان يقصد بذلك أن يهبه الأمان وينسيه شجن الوطن وحنين الدار .

ولاحت البشائر من بعيد تعلن قدوم المصطفى إلى المدينة وهبت نسائم الحبيب تنعش أفئدة الأحباء الأوفياء وتشرح صدورهم . . وليس أزكى ولا أشجى من نسمات المصطفى الرسول الكريم . .

وكانت الدفوف تدق والأناشيد ترتل وتظلل الجميع سحابات السرور وترفرف عليهم أعلام الفرح ورايات الانشراح . . ولعل أروع ما كان ينشد آنداك ما أنشدته بنات النجار :

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعى لله داع
أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة ... مرحباً يا خير داع

ووسط هذه الحفاوة وذلك التكريم التى لم تشهده المدينة قط يرقب عبد الله ابن أبى بن سلول الجموع الغفيرة التى تركت ديارها إلى خارج المدينة لاستقبال رسول الله ﷺ من الصباح الباكر وكانوا يخرجون كل يوم لهذا الغرض ويمتد الانتظار بهم الساعات الطويلة لا يبالون بوهج الشمس ولا بحرها . .

لقد كان قلب عبد الله بن أبى يعتصر اعتصاراً ويعتزل الناس حتى لا يتعرض لشماتتهم ونظراتهم وهو شىء صعب على النفس إذا ما قلبناه على أوجهه . .

رسول الله فى المدينة :

ووصل رسول الله إلى البلد الذى أراد الله لها أن تكون عاصمة الدولة الإسلامية . .

وأجفل الناس من كل مكان وهم يتزاحمون على الرسول ﷺ كل منهم يريد أن يضمه إلى صدره وأن ينزل ضيفاً عليه فى بيته ويسمع الناس هنا وهناك من يقول (هنا المنعة) ويمسكون بناقة الرسول فيقول لهم (دعوها فإنها مأمورة) ..

ولما استقر بالرسول المقام لم يلبث أن أخذ ينظم هذه الدولة الصغيرة على أساس جديد من النظم الإسلامية السمحة تلك التى تتفق ورسالته التى أراد الله لها الانتشار والازدهار وأراد بها إسعاد البشرية وإنقاذهم من ظلام البربرية وظلم الجاهلية القبلية . .

وتجلت المقدرة القيادية والسياسية فى هذه المرحلة من تاريخ الدعوة المحمدية الإسلامية . . وظهرت كفاءة الرسول العالية وعبقريته الفائقة فى التنظيم الذى قام به والنظم التى أرسى عليها زعامته الروحية . .

لقد كان الحال فى المدينة يختلف عن الحال فى مكة ففى تلك الأخيرة كان الرسول يجابه نكراناً لدينه الذى يتعارض مع ماكان عليه القوم من عادات وتقاليد وفى الوقت نفسه يمد الذين آمنوا به بالصبر واليقين ليثبتوا على دينهم ولا يعودوا للكفر بعد إيمانهم . .

أما الحال فى المدينة فيختلف اختلافا كليا فهم الذين طلبوا منه أن يهاجر إليهم. وأن يتخذ بلدهم دار هجرته والتفوا حوله يبذلون من أجله أرواحهم وأموالهم وأنفسهم فى سبيل إعلاء كلمة الله وفى سبيل انتصار دعوته .

لكنه كان على محمد ﷺ أن ينظم الحياة فى المدينة فقد أصبح فيها زعيما وقائداً وله عليهم الطاعة والولاء . . وعليه أن يضع فى الاعتبار وهو ينظم هذه الحياة اختلاف أهلها وتباينهم فسكانها الأصليون هم الأوس والخزرج — وهما قبيلتان كثيراً ماتنازعتا ووقع بينهما ماوقع من الاعتداءات والحروب . واليهود أيضاً من سكان المدينة الأصليين وقد إنقسموا بالتالى إلى قسمين غير مختلفين كالأوس والخزرج وإنما منضمان لكل منهما وبينهما وبين الأوس على انفراد تحالف وكذلك مع الخزرج ولكنهما كيهود كانوا على مصلحة واحدة وهدف واحد هو البقاء على قوة ومنعة بجوار هؤلاء العرب وتلك الفئات الثلاث يمثلون جانب الغنى والثراء وهم أهل دور وتجارة ومزارع .

ومن جهة أخرى فقد أضيفت إلى الفئات المتقدم ذكرها فئة جديدة هم المهاجرون وهؤلاء وإن كانوا قد استقبلوا من إخوانهم مسلمى المدينة على اختلافهم وتباينهم استقبالا حسناً إلا أن الأمر لايلبث حتى تخبو جذوته وتنطفىء شمعته وتلك الفئة تمثل جانب الفقر لأنهم تركوا دورهم وأموالهم وتجاراتهم حين هاجروا من مكة إلى المدينة . فكان لزاماً على رسول الله أن يضع فى الاعتبار وهو ينظم الحياة فى المدينة هذه الحقائق وألا يغفل عنها الأمر الذى جعله يصلح مابين الأوس والخزرج ويؤلف بعد ذلك بين قلوبهم كأنصار وبين قلوب المهاجرين . ثم بعد ذلك أكد لليهود حقوقهم وكفل لهم حرياتهم الدينية كاهل كتاب وعقد معهم المعاهدات والمحالفات ليأمن فى الوقت نفسه مكرهم (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) .

هذا من الناحية الأدبية .

أما من الناحية المادية فإن الرسول ﷺ كان يقابله ماعليه الأنصار من غنى وثراء وأنهم أهل دور وتجارة وزراعة بعكس ما كان عليه المهاجرون من العدم والطوى فقد تركوا دورهم وأموالهم وتجارتهم فى سبيل الله .

وهذا يمثل طبقية ليست من طبيعة المجتمع الإسلامى المتكامل فى اشتراكية الحس والروح وما نزل به القرآن الكريم ﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ﴾ .

وقد عرض الأنصار على المهاجرين أن يقاسموهم دورهم وأموالهم وما هو أعز على أنفة العربى من الدور والأموال . . ورغم هذا العرض الجميل الكريم وما تجلت فيه من معانى التضحية ، هذه المعانى نفسها رفضت هذا العرض فقد كان المهاجرون سادة قريش وهامات فى العرب كافة فحالت سيادتهم وسمت همتهم عن أن يقبلوا هذا العرض من الأنصار ، وآثروا العدم والفقر والطوى على الثراء والسعة واعتذروا لإخوانهم اعتذار جميلا حوى صادق التقدير وحسن الرد .

وبقى الحال يمثل مشكلة اجتماعية تلك التى يطلقون عليها الطبقية . .

إلى أن حانت الفرصة لعلاج هذه المشكلة .

حين غدر بنو النضير من اليهود برسول الله وتجهز لقتالهم وحاصرهم وانتهى بإجلائهم عن المدينة تاركين دورهم وحصونهم وأموالهم ومزارعهم فيئا للإسلام وأهله .

وتهيأت الفرصة أمام رسول الله للقضاء على الطبقية التى أشرنا إليها تلك التى تتمثل فى غنى الأنصار وفقر المهاجرين .

وجمع الرسول المهاجرين والأنصار وخطب فيهم :

« يامعشر الأنصار إن شئتم جمعت هذا الفىء إلى أموالكم وقسمت جملته بينكم وبين إخوانكم المهاجرين » .

وإن شئتم أبقيت لكم أموالكم وجعلت هذا الفيء لإخوانكم المهاجرين خاصة .

وتجلت خلق الأنصار الكريم حين أجابوا : [لا يارسول الله بل تجعل هذا الفيء لإخواننا المهاجرين ثم تقسم لهم من أموالنا ماشئت] .

ولقد خلد القرآن الكريم ثناءه على الأنصار :

﴿والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ .

وإذ سجل القرآن هذه التجربة الخطيرة فإنه سجل ماواكبها من النجاح المعجز الذى حققه وأحرزه رسول الله فى عالم الاجتماع والعدل الاقتصادى : « لكيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم » .

وبذلك أتم الرسول بناء الجبهة الداخلية بناء سليما كان فيه من بعد النظر ودقة التنظيم مايدل على فهم سليم وإدراك قوى كفل لهذه الجماعة الاستقرار والترابط والقدرة على النمو والتحرك والانطلاق من إسار الخلافات والعداوات التى كانت تعطل سيرهم وتعرقل تقدمهم وتماسكهم . .

ولذلك فقد أمن محمد ﷺ ألا تخونه الجبهة الداخلية وأن يتجه إلى الجبهة الخارجية بكل ما أوتى من حكمة وعقل ليصد عنه ومن معه كيدهم واعتداءتهم فإن قريشاً لن تسكت عن محمد وهو يكون لنفسه دولة ويقيم مجتمعاً يناهضهم ويكون خطراً يتهددهم وقريش قادرة على الاعتداء قادرة على الحرب قادرة على إثارة القلاقل قادرة على أن تقضى على الدعوة التى خرجت من بينها مهاجرة إن غفلت هذه الدعوة قليلا أو أصابها تفكك أو انحلال .

وفى سبيل دعم تنظيم الدولة أقام محمد مسجداً كمقر للرياسة وفيه تبرم كل

الأمور ويتم إتصال الرسول بالمسلمين للتشاور فى كافة الشئون وما يتحقق معه الصالح العام . . كما كان يستقبل أيضا الوفود التى قدمت المدينة تبارك هذه الدعوة وتدخل فيها بأى صورة من صور التعاون والتآلف . .

وما كاد العام الأول من هجرة الرسول إلى المدينة ينتهى حتى وضع دستورا لتنظيم الحياة العامة فى المدينة سمى هذا الدستور بالصحيفة جعل أطرافا لها ثلاثة الأول المهاجرون والطرف الثانى الأنصار يشقيهم الأوس والخزرج والطرف الثالث اليهود من أهل المدينة وفى هذه الصحيفة تحددشكل الدولة الإسلامية وتحددت العلاقات بين الناس . . وإذا كانت تحمل هذه الصحيفة من مدلول فإن أول ما يقابل الباحث فى عظمة محمد من أنه صلى الله عليه وسلم كان على مقدره فائقة من الناحية التشريعية وعلى علم واف بطبائع البشر وتقدير محمود لظروفهم وما من دولة قامت إلا مكثت ردحا من الزمن حتى أتخذت دستورا بعكس الحال فى الدولة الإسلامية فقد قامت على أساس دستورى سريع بهر العالم وبهر الذى يدرسون النظم الدستورية ومقومات الدول ولعل ذلك ما أكسبهم تقديرا عظيما لمحمد استوى فى ذلك أهل الشرق والغرب وأتفق عليه الباحثون . .

ماذا تقول الصحيفة ؟

« بسم الله الرحمن الرحيم . . هذا كتاب من محمد النبى صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، وأنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على ربعتهم (١) يتعاقلون بينهم ، هم يفدون عانيهم (٢) بالمعروف والقسط بين المؤمنين . .

وبنو عوف وبنو ساعدة وبنو الحرث وبنو جشم وبنو النجار وبنو عمرو ابن عوف وبنو النبيت وبنو الأوس كل منهم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وأن المؤمنين

---

(١) على ما كانوا عليه من شئون وعادات من احكام الديات والدماء.

(٢) أسيرهم

لا يتركون مفرحا (١) بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل . ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة (٢) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم . ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر ، ولا ينصر كافرا على مؤمن وإن ذمة الله واحدة . يجير عليهم أدناهم . وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس . وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم وإن سلم المؤمنين واحدة . لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم ، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا ، وإن المؤمنين يبيء (٣) بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله ، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه . وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ، ولا نفسا ، ولا يحول دونه على مؤمن . وإنه من اعتبط (٤) مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولى المقتول وإن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه ، وإنه لايحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا ولا يؤويه ، وإنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل ، وإنكم مهما إختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد صلى الله عليه وسلم . وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين . لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم فانه لايوتغ إلا نفسه وأهل بيته . . وإن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن ليهود بنى الحرث مثل ما ليهود بنى عوف وإن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف وإن ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن ليهود الأوس مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته . وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم ، وإن لبنى الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن البر دون الاثم ،

---

(١) مثقلا بالدين
(٢) عطية
(٣) يمنع
(٤) قتله من غير شيء يوجب قتله

وإن موالى ثعلبة كأنفسهم ، وإن بطانة يهود كأنفسهم ، وإنه لايخرج منهم أحد إلا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم . وإنه لا ينحجز على ثأر جرح ، وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم . وأن الله على أبر هذا ، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وإن بينهم النصح والنصيحة والبردون الاثم وإنه لم يأثم أمرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم ، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين . وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وإن الجار كالنفس غير مضار لا آثم ، وإنه لاتجار حرمة إلا بإذن أهلها . وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار (١) يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز جل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره . وإنه لاتجار (٢) قريش ولا من نصرها ، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب ، إذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين . على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم ، وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر الحسن من أهل هذه الصحيفة ، وأن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه وإن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره وإنه لايحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم . وإنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم ، وإن الله جار لمن بر وأتقى ، ومحمد رسول الله ﷺ . .

ماذا تعنى الصحيفة ؟

لقد اعتبرت الصحيفة المسلمين أمة واحدة من دون الناس « وأن هذه أمتكم أمة واحدة وانا ربكم فأعبدون » يقول فيها القرآن الكريم « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » . . والصحيفة إذ توضح هذا الاعتبار الهام وأن المسلمين أمة واحدة فإنها قد دعت

---

(١) اختلاف (٢) ينتصر لها

إلى التراحم والتعاون على أوسع نطاق وما يندرج تحت التراحم والتعاون من ولاء ومراعاة لحقوق الغير والمسئولية الذاتية من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها والبعد عن الجاهلية بحميتها وثاراتها ولا تزر وازرة وزر أخرى ورد الأمر كله إلى ولى الأمر الممثل فى شخصية محمد صلى الله عليه وسلم (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) .

موقف ابن أبى من الصحيفة :

لم يكن هناك بد أن يخضع عبد الله بن أبى لهذه الصحيفة وتلك الثورة الجديدة التى قامت فى المدينة على أسس متينة من التراحم والتعاطف والاشتراكية السمحة والوضوح والكفاية والعدل . . نعم : : لم يكن هناك بد أن يخضع عبد الله ابن ابى لما يدور حوله وأن يجارى القوم فأسرع أولا إلى الإسلام فمد يده إلى الرسول ويمين فاحصة عرف الرجل عدوه وعرفه الرسول منافقا مراوغا من الممكن أن يكون مصدر قلق وفتنة وما كان للرسول أن يفضح الرجل ويكشف مكنون صدره وخبايا نفسه وأن الزمن والأحداث كفيلة أن تظهر هؤلاء المنافقين على حقيقتهم وتظهرهم مرضى النفوس سقيمى الوجدانات مع خلق متداعية وخبث واؤم وآنذاك ستعرفهم أقوامهم وأولادهم والذين كانوا يحسنون بهم الظن فينفرون منهم ويهربون هروبهم من المجذومين ويحق عليهم عذاب الله . .

وما برح الرجل من مجلس الرسول ﷺ حتى ذهب إلى اليهود يعلن ولاءه لهم ضد رسول الله فهما الاثنان على درجة واحدة من الحقد والضلال والعداء فاليهود قد انتهت مطامعهم وبهتت آمالهم وغابت شمس أملهم أمام الصحيفة ولم يعد هناك مجال لدسيسة أو افتراء أو تحزيب وتأليب يغنمون من ورائه وابن أبى هوى ملكه وغربت مملكته ولم يلبث الحلم الجميل الذى كان يحلم به إن صار أضغاثا فهو واليهود سواء مثلهم مثل تحالف الشيطان قد وافق كل منهما الآخر ووضعت اليهود يدها فى يد عبد الله بن أبى بن سلول وأوغروا صدره تجاه محمد ﷺ وذكروه.

بما كان قد أجمع عليه القوم من تتويجه ملكا . . وكيف تبدل الحال وضاعت هيبته وكرامته فى قومه . .

ومن هنا والعداوة المستحكمة ترمى بسهامها الطائشة قلعة الإسلام وقلعة الدعوة المحمدية وكادت تذهب هباء إلا أنها فى بعض الأحايين كانت تهديداً أصاب الإسلام بطعنات رهيبة دامية كادت تقوض صرحه وتهد كيانه .

تعريضه بالرسول عند تحويل القبله :

بعد أن استقر الرسول بالمدينة كان صعباً عليه أن يتجه بصلاته إلى بيت المقدس تنفيذاً لأمر ربه وكانت نفسه تهفو دائماً إلى الكعبة حيث البلد الحرام مكة . . وكانت هذه فرصة سانحة لليهود ليوهموا الأنصار أن محمداً قد عاد إلى صوابه حين اتجه إلى بيت المقدس فقد كانوا يصفونه بأنه دجال كذاب لإنه خرج على قاعدة الرسل أن يكونوا من بنى إسرائيل . .

وظل الرسول ستة عشر شهراً يتجه فى صلاته إلى بيت المقدس لكن قلبه ظل معلقاً بالكعبة يرجو الله أن يعيده إلى قبلة أبيه ابراهيم إلى الكعبة الشريفة . .

وبث رسول الله إلى جبريل هـــذه الرغبة فقال له : « إنما أنا عبد فادع ربك واسأله » . .

فجعل يقلب وجهه فى السماء يناشد الله فى صمت فهو يعلم السر وأخفى فحقق الله رجاءه وأعاده إلى قبلة أبيه ابراهيم ونزل فى ذلك قول الله تبارك وتعالى : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره[١] » . .

ولم يكن تحويل القبلة بالأمر السهل الذى يتقبله الناس ولكنه كان حادثاً فتن الناس واختلفوا فيه فالمسلمون قالوا : « آمنا به كل من عند ربنا » ذلك أنهم

(١) البقرة .

لم يروا فى الأمر صعوبة فهم قد فرضت عليهم طاعة الله ورسوله والرسول لهم بمثابة الرائد والقائد ويعلمون يقيناً أن ما يأتيه من قول أو فعل أو عمل إنما يكون من عند الله العليم الخبير ولا تبديل لهذه الأمور ولا يعقلها إلا العالمون .

وتساءل اليهود فى خبث : « ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها » وهم بذلك يهزءون ويشمتون ويثيرون فى النفوس المظنات والشكوك . .

وأما المنافقون وعلى رأسهم عبد الله بن أبى فقد أخذو يشككون فى هذا الدين ويعلنونها صراحة بين المسلمين أن هذا الذى يسيرون وراءه على باطل يقصدون محمداً وأن دينهم ليس فى الحق من شىء وقالوا : « إن كانت القبلة الأولى حقاً فقد تركها وإن كانت الثانية هى الحق فقد كان على باطل وأشاعوا « أن محمداً يتقلب ولايستقر على حال » وليس من شأن الأنبياء التقلب ومن ثم فهم يتشككون فى هذه النبوة . .

ولاقى المسلمون من ذلك ما لاقوا فأينما ساروا أو قصدوا وحادثة تحويل الكعبة تلوكها الألسنة بما لا يتفق والواقع وإنما يراد بذلك النيل من الدعوة المحمدية . . وثبت على الإيمان المخلصون « وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله(١) وضعف ذوو العقيدة الضالة فتركوا هذا الدين إلى ما كان يعبد آباؤهم . .

ولكن القرآن الكريم رد عليهم أن المسألة ليست اتجاهاً الى بيت المقدس أو إلى الكعبة انما المسالة فى واقعها نية خالصة وايمان قوى يتمثل معهما إتباع النبي فيما يأمر به وينهى عنه ووصف القرآن الذين عارضوا الأمر وقابلوه بالتشكك بأنهم على سفاهة « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء الى صراط مستقيم(٢) » .

وأوضح الله أن الاتجاه الى بيت المقدس ليس تقرباً لليهود أو تملقاً لهم وليس معاداة لقريش وتنفيرا من كعبتهم . . وانما هو ابتلاء من الله للمؤمنين فمن احتسب

---

(١) و (٢) البقرة .

ثبت وصبر فهو المؤمن الحق ومن تشكك فلا حاجة للإسلام به فالإسلام يتطلب رجالا على خلق وعلى قيم يثبتون ولايفتنون ويدافعون عن دعوة الرسول ﷺ . .

وكانت محنة القبلة تصفية للعناصر الإسلامية مما شابها من المنافقين واليهود والمخادعين وفى ذلك يقول القرآن الكريم : « وما جعلنا القبلة التى كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه » .

ومما أثارته عصبة النفاق برأسها عبد الله بن أبى أنهم أشاعوا أن الذين اتجهوا الى بيت المقدس فى صلاتهم ثم ماتوا قبل التحويل فقد ضاع عليهم الثواب ولكن الله كذبهم وكذب افتراءاتهم « وما كان الله ليضيع ايمانكم ان الله بالناس لرءوف رحيم » .

وأراد الله أن يحقق رغبة حبيبه واتجه المسلمون فى صلاتهم الى الكعبة المشرفة ولم تشمر حرب النفاق ولم يفلح المنافقون فيما ذهبوا اليه . .

لكن الرسول ﷺ بقدر ما أغاظته هذه الحملة المسعورة بقدر ما تأكد له مما ارتآه بادىء ذى بدء فى الرجل وهو يمد اليه يده . . لقد كان الرجل يقطر غيظاً وحقدا وكمدا على ملك استلبه محمد فضغن وحقد وبات يدس ويكيد . .

تخذيله يوم بدر :

كان لا بد وأن يصطدم الإسلام فى المدينة بالشرك فى مكة . .

والمدينة لم تنس هؤلاء المجرمين الفجرة الذين اضطهدوا المسلمين وعذبوهم وصادروا أموالهم وآذوا الرسول ايذاء شديدا .. فى الوقت نفسه لم تكن قريش لترضى على أهل المدينة بل كانت قريش حانقة على الأنصار لأنهم أوسعوا المهاجرين صدورهم ودورهم وأفسحوا لهم المجالات التى بها يتعايشون ويرزقون وفرضوا عليهم حمايتهم وجيرتهم والتفوا حول الرسول وأيدوه تأييدا . .

وكان لابد والحال وما ذكرنا من احتكاك ولابد من مناوشات ولابد أن يدخلوا حرباً ينال كل منهما من الآخر على عادة العرب وليست الحرب عليهم

بغريبة ولا شاقة وإنما على أتفه الأسباب فما بالنا بهذه الأسباب القوية . .

ومن جانب الرسول فقد بث السرايا تلتقط الأخبار وتهاجم القوافل المارة بحدود المدينة . . وحبب الله إلى المسلمين الشهادة والاستشهاد ووعدهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا . .

فأقبلت النفوس على الموت تستطيبه دفاعا عن العقيدة والمبادىء ولاسترداد ما يمكن أسترداده مما أفتقدوه قسرا وسط ظروف متناهية فى ظلمها وظلامها وتهيأت لهم فرصة ثمينة . .

فقد جاءت الأخبار تحمل أنباء مرور قافلة أبى سفيان . .

لكن أبا سفيان أفلت من أيدى المسلمين متخذا طريقا غير المألوف . .

وتسربت الأنباء إلى قريش فأبت إلا أن تخرج لقتال محمد ﷺ واتخذت من ذلك سببا للقائه رغم أنه لم يحدث أى شىء للقافلة . .

وأراد الرسول أن يلتقى الإسلام بالشرك فى موقعة ينتصر فيها الحق ليزداد المسلمون إيمانا على إيمانهم وليعلم المسلمون أنهم أقوى من قريش فلا يندم الأنصار على حمايتهم للمهاجرين . .

وصاح الرسول فى أصحابه « إن الله وعدنى إحدى الطائفتين إما العير وإما قريش » ولقد أفلتت العير فأمامهم قريش وعليها سينتصرون . .

وأستشار الرسول أصحابه ولم يستبد برأيه ولم يجبر أحدا على القتال وطبقا القاعدة الإسلامية « وشاورهم فى الأمر » وقف فيهم وقال « أشيروا على أيها الناس » فقال المهاجرون خيرا وتطوع عنهم المقداد بن الأسود « إمض يا رسول الله لما أمرك الله . . لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى إذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ولكن نقول لك إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون والله لوسرت بنا إلى برك الغماد لسرنا وراءك ما تخلف منا رجل واحد »

وأثنى عليه الرسول خيرا لكن الرسول يريد رأى الأنصار الذين بايعوه على أن يمنعوه ما يمنعون منه نساءهم وذراريهم فهل يحاربون معه أم أنهم يرهبون الحرب وأراد عبد الله بن أبى أن يتحدث ليثبط الهمم ويخزى الرسول ويهاجم هذه المغامرة لكن سعد بن معاذ سبقه إلى الحديث فأخرسه « لعلك تعنينا يا رسول الله لقد آمنا بك وصدقناك وعلمنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا فسر لما أمرك الله به فوالله لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، إنا لصدق فى الحرب ، صبر عند اللقاء ، ولعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك فسر على بركة الله »

ووجم عبد الله فلقد كان يحترق وهو يرى إلتفاف الأنصار حول الرسول وتبركهم به ما إن تسقط منه شعرة حتى يتسابقوا عليها ولا تفل إلا ومسحوا بها على وجوههم وأجسامهم وإذا تحدث أنصتوا وفاضت الدموع من أعينهم فهانت الدنيا عندهم وافتدوا دينهم بأرواحهم وأموالهم . .

وهاهم اليوم يقفون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا حول الرسول ﷺ « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص (١) .

وأشرق وجه الرسول وقال « لكأنى أنظر إلى مصارع القوم »

وكيف لا فقد وعده الله إحدى الطائفتين وأعطاه تأييدا مطلقا من قومه ومن أصحابه تأييدا اجتمع عليه المهاجرون والأنصار على السواء كلهم وراء الرسول إلى غايته إلى ما أمره الله . .

وخرج الرسول فى ثلاثمائة وأربعة عشر للقاء قريش مهما كثر عددها وعتادها وعدتها . .

وحاول ابن أبى أن يخذل الناس ولكنهم وراء الرسول فتعجب وقال « غر هؤلاء دينهم » .

---

(١) الصف

وتحركت الجيوش إلى خارج المدينة وبقى عبد الله بن أبى يشيع الرعب ويلشر الأنباء الكاذبة عن المعركة وهزيمة المسلمين وهو بذلك يهيج النساء حتى لا تسمحن لأزواجهن بالخروج مع الرسول مرة أخرى ولكن الله خذله بتخاذله وضيع عليه ما كان يأمل وجاءت الاخبار بالنصر العظيم الذى أحرزه المسلمون وكيف أن المسلمين نالوا من قريش سبعين قتيلا وسبعين أسيرا وغنائم كثيرة . .

واضطر المنافق المخادع أن يقابل المسلمين وهم عائدون بالنصر ثم ما لبث أن تسلل إلى ديار اليهود يبثهم حزنه وآلامه ويبحث معهم مكيدة أخرى يرمون بها المسلمين . .

«وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . »

انسحابه يوم أحد :

حزنت مكة حزناً عميقاً وكلها أصابتها الهزيمة وما من بيت فيها إلا وقد أريق فيه دم قتيل ولبست النساء لباس الحداد وأقسمت احداهن هند زوجة أبى سفيان ألا يقربها حتى يثأر لأبيها وأخيها اللذين قتلهما محمد وكما حدث من هند حدث من كثيرات وأهبن بالرجال أن يخرجوا للقاء المسلمين من جديد .

وأوقفت قريش ثمن القافلة المشئومة التى كانت سبباً فى معركة بدر للاعداد للحرب القادمة وفى هذا نزل الذكر الحكيم « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون (١) » .

---

(١) الأنفال

وخرجت قريش فى ثلاثة آلاف مقاتل يريدون أن يقطعوا دابر المسلمين .

واستشار الرسول أصحابه .

وكان رأيه ألا يخرج لملاقاة المشركين فاذا دخلوا قاتلهم المسلمون فى أفواه السكك والنساء من فوق البيوت . ووافقه عبد الله بن أبى بن سلول على رأيه .

فبادرت جماعة من الصحابة الذين لم يشهدوا بدرا وعلى رأسهم عمر وأشارت على الرسول بالخروج حتى تحس قريش بقوة المسلمين فنهض الرسول ولبس لأمة الحرب وخرج عليهم فعاتب بعضهم بعضاً وقالوا « استكرهنا رسول الله على الخروج » وتقدموا منه قائلين « إن أحببت أن تمكث بالمدينة فافعل » فقال (ما ينبغى لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه) .

وجدير بالذكر أن الرسول كان قد رأى رؤيا (أن فى سيفه ثلمة وأن بقرا يذبح وأنه يدخل يده فى درع حصينه) فتأول الثلمة برجل يصاب من أهل بيته والبقر بنفر من أصحابه يقتلون والدرع بالمدينة فخرج على أصحابه (عليكم بتقوى الله والصبر عند اليأس إذا لقيتم العدو وانظروا ماذا أمركم الله به فافعلوا) .

وكانت مقدمات انكسار المسلمين حينما خرجوا فى نحو ألف وبينما هم بالشوط بين المدينة وأحد انسحب عبد الله بن أبى بنحو ثلث المعسكر وقال (عصانى وسمع من غيرى ما ندرى علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس) وتبعه عبد الله بن عمرو والدجابر بن عبد الله وعرض عليهم الرجوع إلى صفوف المسلمين حتى لا يحدثوا تصدعا وقال لهم (قاتلوا فى سبيل الله وادفعوا) فرد عليه عبد الله (لو نعلم قتالا لاتبعناكم) فرجع عنهم بعد أن سبهم .

وكانت النكسة التى لاقاها المسلمون حينما خالف الرماة أوامر الرسول وتركوا مكانهم على الجبل فاحتله خالد بفرقة من قريش وأوسع المسلمين ضربا وقتل الكثير وجرح رسول الله وقتل وحشى حمزة واستشهد خيرة أصحاب رسول الله كمصعب ابن عمير .

ولما عاد المسلمون إلى المدينة أخذ المنافقون يتحدثون ويعاتبون ويتشفون منهم ويقولون لو ظللتم معنا لما أصابكم ما أصابكم ولما قتل من قتل ولما حلت الهزيمة بكم من قريش. ورد القرآن على هؤلاء (لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) .

وعنف المنسحبين المنافقين وفضح موقفهم وعفا عن المدبرين من المسلمين بعد أن أظهروا اعتذارهم لتظل الجبهة الاسلاميه على قوتها لا تتصدع (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم (١)).

وقال القرآن يصف عبد الله ومن معه الذين كانوا على نية خبيثة بيتوها يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أوكانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم والله يحى ويميت والله بما تعملون بصير .

ووضحت للرسول صلى الله عليه وسلم مرة أخرى صورة المنافقين وعلاماتهم.. عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله : « إن للمنافقين علامات يعرفون بها .. تحيتهم لعنة .. وطعامهم نهبة وغنيمتهم غلول ولا يقربون المساجد إلا هجراً ولا يأتون الصلاة إلا دبرا مستكبرين لا يألفون ولا يؤلفون خشب بالليل صخب بالنهار »..

ولقد كان عبدالله بن أبى يحضر الجمعة وما أن يصعد الرسول المنبر حتى يقوم مراءاة ويقول : (أيها الناس هـذا رسول الله بين أظهركم أكرمكم الله به وأعزكم به فأنصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوه) ، ثم يجلس وكان ذلك يعطيه بعض المكانة لكنه بعد انسحابه بثلث الجيش فى أحد أراد يوم جمعة أن يقول كما تعود لكن المسلمين أخذوا بثيابه وقالوا : (اجلس ياعدو الله لست لذلك بأهل وقد

---

(١) آل عمران .

صنعت ما صنعت) فخرج يتخطى الرقاب وهو يقول : (والله لكأنما قلت بجراً أأن تمت أشدد أمره) فلقيه رجال من الأنصار بباب المسجد فقالوا :(ويلك مالك) فأخبرهم فقالوا : (ويلك ارجع يستغفر لك رسول الله) فقال : (والله ما ابتغى أن يستغفر لى رسول الله) وفيه قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾[1].

خيانته يوم الأحزاب :

أرادت قريش أن ترمى بكل ثقلها لتقتحم المدينة وتسكت الصوت الإسلامى تسمعه كافة البقاع وتحالفت مع غطفان وخرجت فى نحو عشرة آلاف غير العبيد والأحباش .

ولما علم الرسول استشار أصحابه كالعادة وأشار سلمان الفارسى بحفر خندق فى الموضع الذى يخشى معه أن يقتحمه المشركون ووافق الرسول وشارك فى حفر الخندق .

لقد كان عبد الله بن أبى يتمنى لو هزمت قريش محمداً وقضت على نبوته ولم يكن يقدر على اظهار ذلك الشعور إلا ليهود قريظة الذين كانوا على مستواه من الحقد والنفاق والضلال ولا سيما وقد أخرج الرسول يهود بنى القينقاع وبنى النضير وبقيت قريظة تنتظر نفس المصير وهو الطرد لأنهم كانوا يخونون الرسول ويقطعون العهود والمواثيق ويفسدون فى الأرض .

وتم حفر الخندق وأقام الرسول عليه الحراس وأوكل لكل بيت أن يشارك فى الدفاع ونصب عليهم جميعاً الزبير بن العوام .

وتوافدت قريش وحلفاؤها من كل جهة يطوقون المدينة ووصفهم القرآن

---

(١) المنافقون .

وصفاً يدل على مدى أعدادهم وقوتهم « إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً (١) .

وحاولت قريش اقتحام المدينة فمنعها الخندق وقال أبو سفيان « هـذه والله مكيدة ما كانت العرب تكيدها » وفى شدة الحصار والرسول قلق على المسلمين جاءت الأخبار أن بنى قريظة قد نقضوا العهد وانضموا للحلفاء فانفتحت ثغرة على المسلمين .

وانتهز عبد الله بن ابى الفرصة وانسحب بمن معه من المنافقين بعد أن استأذنوا رسول الله بحجة أن بيوتهم مكشوفة وأنهم يخافون على أعراضهم وأموالهم وأولادهم وكان عبد الله قد شكك فى امكان النصر على المشركين واذاع إن الله غرر بالمسلمين وأن يثرب ستدمر « وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا » وقال القرآن فى انسحابهم وغدرهم واعتذارهم الكاذب « وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فراراً كما أوضح القرآن أموراً تكشف عن أسرار المنافقين وأنهم على استعداد ليرتدوا عن دينهم وأنهم بيتوا لذلك النية إذا انتصرت قريش أعلنوا لها أنهم يعودون لعبادة هبل واللات والعزى « ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيراً » ويبين القرآن كذلك أنهم نقضوا العهد يوم قالوا لرسول الله إننا نؤيدك وننصرك ولن نهرب من المعركة « ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا » وأوضح القرآن صراحة « قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل وإذن لا تمتعون إلا قليلا » .

لقد أخزى الله عبد الله ومن معه أنهم يرهبون الحرب ويخافون الموت ويكيدون الرسول ويحقدون عليه ويودون له الهزيمة ولدينه الزوال إلى دين

(١) الأحزاب .

آبائهم . . وكيف أنهم فى السلم ألسنتهم سليطة وكلامهم كثير وثرثرتهم زائدة . . أما فى الحرب والمعركة دائرة فهم صفر الوجوه يتمنون أن يكونوا بعيداً عن المدينة يتلمسون أخبارها حتى لا يصطدموا بسيوف الأعداء وأنهم يبخلون بالمال والفداء ويكرهون للمسلمين الانتصار ﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فاحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الاحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسالون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا ﴾(١) .

رغم هذه الظروف القاسية وتلك النفوس السيئة فقد ثبت الرسول ومن معه من رجال مخلصين قال فيهم الله ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليما ﴾ .

وأرسل الله الريح على المشركين تشيع الفوضى فى خيامهم ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فارسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً . ﴾

وتفرق شمل الأحزاب وقال رسول الله القولة التى حطمت آمال عبد الله ابن أبى فى أن يهزم المسلمون (الآن نغزوهم ولا يغزوننا) فقد حمى الله المدينة وأيد الأنصار وأعز جنده وأعلى شأن نبيه وكتب للدعوة المحمدية مرة ثانية الانتصار الذى ذاعت أنباؤه فى الآفاق وسجل التاريخ صفحات مجيدة من كفاح المؤمنين وجهاد المخلصين ذلك الكفاح والجهاد الذى يتسم بإنكار الذات والثبات على المبدأ القويم والإيمان بنصر الله والإقبال على الموت والاستشهاد . . كما كتب التاريخ أيضاً صفحات قاتمة عن المنافقين وعلى رأسهم عبد الله بن أبى صفحات يجللها السواد وتمضى سطورها تحكى من قصص الغدر والخيانة ما لم يتصوره عقل .

---

(١) الأحزاب .

ابن ســـلول وقصة الأفك :

كان من أكبر اللاغطين بحديث الإفك عن سوء نية وكيد مبيت للنبي ودينه وقاد عبد الله بن أبى حملة تجريح الرسول فى عرضه وشرفه وفى زوجة مخلصة مؤمنة من بنات أعز أصحابه وأصفاهم وأقربهم إليه أبى بكر الصديق .

والقصة كما ترويها بطلتها عائشة رضى الله عنها بلسانها إذ تقول :

« ... كان رسول الله إذا أراد أن يخرج إلى سفر أقرع بين نسائه ، فأيها خرج سهمها خرج بها رسول الله معه . وأقرع بيننا فى غزوة غزاها فخرج فيها سهمى ، ثم قفلنا من الغزوة إلى أن دنونا من المدينة ، فقمت حين أذنوا بالرحيل فتمشيت حتى جاوزت الجيش وقضيت من شأنى ، وأقبلت إلى الرحل فلمست صدرى فإذا عقدى قد انقطع ، فرجعت ألتمسه فحبسنى إبتغاوه .. وأقبل إلى الرهط الذين كانوا يرحلونا لى فحملوا هودجى وهم يحسبون أنى فيه . وكانت النساء إذ ذاك خفافا لم يهبلن(١) ولم يغشهن اللحم . إنما يأكلن العلقة من الطعام . فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه إذ كنت مع ذاك جارية حديثة السن ..

« ووجدت عقدى فجئت منازل الجيش وليس بها داع ولا مجيب ، فتيممت منزلى الذى كنت فيه وظننت أن القوم سيفقدوننى فيرجعون إلى ..

« فبينما أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت . وكان صفوان بن المعطل السلمى قد عرس من وراء الجيش فأدلج(٢) فأصبح عند منزلى فرأى سواد إنسان نائم . فعرفنى حين رآنى واسترجع : فاستيقظت وخمرت وجهى بجلبابى ، ووالله مايكلمنى

---

(١) يثقلهن اللحم والشحم .

(٢) سار آخر الليل .

كلمة ولا سمعت منه كلمة غير إسترجاعه حتى أناخ راحلته وركبتها وانطلق يقودها حتى أتينا الجيش بعد مانزلوا فى نحر الظهيرة(١) .

« فهلك من هالك فى شأنى ، وكان الذى تولى كبره عبد الله بن أبى بن سلول . .

« واشتكيت حين قدمنا المدينة شهرا والناس يفيضون فى قول أهل الإفك ولا أشعر بشىء من ذلك .

« . . . ويريبنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله اللطف الذى كنت أرى منه حين اشتكى إنما يدخل رسول الله فيسلم ثم يقول : كيف تيكم ؟ . . فذاك يريبنى ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعد مانقهت وخرجت معى أم مسطح قبل المناصع(٢) .

« ثم عدنا فعثرت أم مسطح فى مرطها ، فقالت : تعس مسطح . .

« قلت : بئس ماقلت . . أتسبين رجلا شهد بدرا ؟

« قالت : أى هنتاه(٣) . أو لم تسمعى ما قال . .

« قلت : وماذا قال . .

فأخبرتنى بقول أهل الإفك . . فازددت مرضا إلى مرضى فلما رجعت إلى بيتى دخل على رسول فسلم ثم قال : كيف تيكم ؟ . استأذنت أن آتى أبوى : أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما فأذن لى . .

« قالت أمى : يا بنية هونى عليك . فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا كثرن عليها . .

---

(١) شدة الحر . (٢) الأماكن التى يقضون فيها الحاجة .

(٣) تنبى عنها الطيبة وقلة المعرفة .

قلت : سبحان الله . . وقد تحدث الناس بهذا . . فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم .

ودعا رسول الله على بن أبى طالب وأسامة بن زيد يستشيرهما فى فراق أهله. فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله بالذى يعلم من براءة أهله ، وبالذى يعلم فى نفسه لهم من الود ، وقال لرسول الله هم أهلك ولا نعلم إلا خيراً .

وأما على بن أبى طالب فقال : لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير . ولو تسأل الجارية تصدقك . . فدعا رسول بريرة يسألها : هل رأيت من شىء يريبك من عائشة . قالت : والذى بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرا قد أغمصه(١) عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام على عجين أهلها ، فتاتى الداجن(٢) فتأكله . . .

. . . وبكيت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ثم بكيت ليلتى المقبلة لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، وأبواى يظنان أن البكاء فالق كبدى . .

فبينا نحن على ذلك دخل رسول الله فيسلم ثم جلس وتشهد ثم قال : أما بعد يا عائشة فإنى قد بلغنى عنك كذا وكذا . فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه . فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه .

فلما قضى رسول الله مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة . فقلت لأبى : أجب عنى رسول الله ، فقال . والله ما أدرى ماذا أقول لرسول الله . .

فقلت لأمى : أجيبى عنى فقالت كذلك : والله ما أدرى ماذا أقول لرسول الله .

---

(١) آخذه عليها وأعيبه .
(٢) الحيوان الذى يألف البيت .

قلت ـ وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن ـ إنى والله لقد عرفت أنكم سمعتم بهذا حتى استقر فى نفوسكم وصدقتم به : فإن قلت لكم أنى بريئة ، والله يعلم أنى بريئة ، لا تصدقونى ، ولئن إعترفت لكم بأمر ، والله يعلم أنى بريئة لتصدقوننى ، ما أجد لى ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف (فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون) .

ثم تحولت فاضطجعت على فراشى .

. . . . . فوالله ما رام رسول الله مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله عز وجل على نبيه فاخذه ما كان ياخذه من البرحاء عند الوحى ، حتى أنه ليتحدر منه مثل الجمان(١) فى اليوم الشاتى .

فلما سرى(٢) عن رسول الله وهو يضحك كان أول كلمة تكلم بها أن قال : (أبشرى ياعائشة أما الله فقد برأك ..) قالت لى أمى : قومى إليه ..

قلت : والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله . هو الذى أنزل براءتى ..

* * *

تلك هى قصة الإفك كما روتها أعف النساء وأطهرن السيدة عائشة رضى الله عنها قصة لاكتها ألسنة المنافقين وسرت إلى المسلمين .

قصة سمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يقبلها بغير بينة . . ولم يرفضها كذلك بغير بينة .. ولم يعجله لغط الناس أن يتخذ فى هذا الموقف الأليم ما توجبه الحمية وما توجبه المروءة فى أن يتقصى الحقيقة واستشار من استشار وهو فى تقصيه للحقيقة يسال حتى الضرة المنافسة لعائشة والتى تضارعها فى حظوتها لدى

---

(١) حبات اللؤلؤ .

(٢) بعد .

الرسول تلك هى زينب بنت جحش فماذا أجابت (أحمى سمعى وبصرى ، والله ما علمت إلا خيرا).

ماذا قبل قصة الأفك :

لم يكن عبد الله بن أبى بن ساول أكبر اللاغطين بحديث الإفك عن سوء نية وكيد مبيت للنبى ودينه هكذا عبثاً ولكن الأمر سبقته أحداث كادت تحدث فتنة بين صفوف المسلمين وكادت الوقيعة تثير الحرب بين المهاجرين والأنصار وتنفصم عرى محبتهم وإخائهم ويتصدع البنيان الإسلامى وقد متن واشتد عوده وقوى .

ومما يزيد الأمر تعجبا أن المسلمين كانوا قد خرجوا لغزوة لم يبذلوا فيها جهدا ولا نصباً وانتصروا وخرجوا منها بنصيب وافر من الغنائم ..

وكأن المسلمين بهذا الانتصار وتلكم الغنائم قد حسدوا أنفسهم فتمكن منهم الشيطان ولعب بالضعفاء منهم لعب نكباء بعود تخرج نشازا وتحدث صخباً .

فقد حدث أن خرج الرسول إلى غزوة بنى المصطلق(المريسيع)(١) وفيها انتصر الرسول ومن معه انتصارا لم يبذلوا فيه جهدا ولا تعباً وغنموا غنائم وفيرة .

وبينما كان الجيش يستريح ويحدث ما يحدث من الإعداد للطعام والشراب إزدحم على الماء أجير لعمر بن الخطاب يدعى جهجاه بن مسعود الغفارى وآخر من الأنصار يدعى سنان بن مسعود الجهنى فاقتتلا فصرخ الأجير يامعشر المهاجرين وصرخ الآخر يامعشر الأنصار واصطنع عبد الله بن أبى الغضب واتخذها ذريعة ليزلزل الجماعة الإسلامية ويقوض صرحها العالى المتين فقال : (أوقد فعلوها). ثم أضاف (قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا وليس لنا والله وإياهم إلا المثل القائل « سمن كلبك يأكلك »).

(... أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ..)

ثم أخذ يوغر صدر الأنصار (هذا ما فعلتم بانفسكم أحللتموهم بلادكم

---

(١) المريسيع ماء لبنى خزاعة .

وقاسمتموهم أموالكم والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم) وفيه نزل القرآن الكريم ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون . يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾(١) .

فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى بها إلى رسول الله فصاح عمر بن الخطاب (يارسول الله مر عباد بن بشر فليقتله) فأجابه رسول الله (فكيف ياعمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه .. لا .. ولكن نادى ياعمر الرحيل) .

فارتحل الناس فى ساعة مبكرة ما كان الرسول يروح فيها ومشى الرسول بالناس يومهم ذلك حتى أمسوا وليلتهم حتى أصبحوا وصدر اليوم التالى حتى آذتهم الشمس وأنهكهم المسير وهد أبدانهم وأهلك قواهم ولم تكن هنالك فرصة يتناقشون فيها ما دار حول الماء . . ونزل بهم الرسول مكاناً فوقعوا فيه نياماً ثم قاموا حتى وصلوا المدينة ..

وقد سال أسيد بن الحضير رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم (لقد رحلت فى ساعة مبكرة ما كنت تروح فيها) .

فقال رسول الله :

(أما بلغك ما قال صاحبك ابن أبى ؟ زعم أنه إذا قدم المدينة سيخرج الأعز منها الأذل) .

قال :

فانت يارسول الله العزيز وهو الذليل .

ثم قال :

ارفق به يارسول الله فوالله لقد جاء الله بك وإنا لننظم الخرز لنتويجه فإنه ليرى أن قد سلبته ملكا .

---

(١) المنافقون

وسمع عبد الله بن عبد الله بن أبى بن ساول ما حدث وموقف أبيه الشائن وكيف أن هناك رأياً اتجه بقتله فتقدم من رسول الله متطوعا أن يقوم بقتل أبيه حتى يقطع بذلك رأس النفاق وقال لرسول الله : يا رسول الله انه بلغنى أنك تريد قتل أبى فيما بلغك عنه فإن كنت لابد فاعلا فرنى به وانا أحمل إليك رأسه فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل أبى يمشى بين الناس فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر فادخل النار » .

لعل هذا الموقف ليس بغريب على المؤمنين حقا .

وأن الإسلام كان مسيطراً على النفوس آخذاً بها جانب الحق مهما كان ولا يهم الإبن أن يقتل أباه فى سبيل إعلاء كلمة الله وفى سبيل الذود عن الإسلام.

ويوم بدر نرى مثلا حياً من أمثلة التزام الحق مهما كانت الأسباب ومهما كانت الأطراف فقد قتل أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح أباه وهم أبو بكر بقتل ابنه عبد الرحمن وقتل مصعب بن عمير أخاه عبيد بن عمير وقتل عمر قريباً له وحمزة وعلى وعبيدة ابن الحارث قتلوا عتبة وشيبة بن الوليد ونزل فيهم قول الله (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الأيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون[1]) .

لكن رسول الله كان رفيقاً بعبد الله الإبن مبقياً على عبد الله الأب فقال : بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا . .

وهكذا أرضى رسول الله الإبن البار الصالح وفرض حماية الأب الفاسد مهما بدر منه . .

---

(١) المجادلة .

وكانت من الرسول مكرمة إلى مكارمه الخالدة ومدعاة إلى أن الخزرج بأسرها عنفوا عبد الله بن أبى وعاتبوه عتاباً بالغ الغلظة فقال الرسول لعمر ابن الخطاب وقد بلغه ما فعلت الأنصار بابن أبى وكان عمر بن الخطاب قد أشار بقتله لما أثاره من فتنة (كيف ترى يا عمر أما والله لو قتلته يوم قلت لى أقتله لأرعدت له آنفاً — يعنى الأنصار — ولو أمرتها اليوم بقتله لقتلته) فقال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله أعظم بركة من أمرى . .

ثم جاءت قصة الإفك :

قلنا إن حادثة الماء كانت ستؤدى بالمسلمين إلى هاوية سحيقة من الإنشقاق ويذهبون ضحية النفاق وأن الرسول فعل ما فعل من المسيرة إلى المدينة دون توقف حتى لا يتناقشوا ويتجادلوا ثم أذن الرسول براحة وقع فيها المسلمون نائمين ولما أمرهم الرسول بالمسيرة فقدت عائشة رضى الله عنها عقدها فرجعت مكانها تلتمسه وجرت أحداث القصة حقيقة كما سلف أوردناها على لسان بطلتها . . ولحقت عائشة رضى الله عنها بالجيش على جمل صفوان بن المعطل يقوده وكان ذلك وقت الظهيرة فلما رأى ذلك ابن سلول تكلم وأفاض ووجد متنفساً يتشفى فيه من الرسول فجعل يستحكى الافك وينسج من خياله قصته فصادفت قبولا من ضعفاء المسلمين وذاعت بينهم حتى ترامت إلى أسماع الرسول وحدث ما حدث إلى أن نزل قول الله (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شر لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم(١)) ودمغ بذلك عبد الله بن أبى وأهانه وأعلن أنه منافق وخطر يتهدد الإسلام وأوضح عذابه فى الآخرة . .

وبعد تبرئة عائشة رضى الله عنها صعد رسول الله المنبر وقال : (يا معشر المسلمين من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهلى فوالله ما علمت على أهلى

---

(١) النور .

إلا خيراً وقد ذكروا رجلا ما علمت عنه إلا خيرا ولا كان يدخل على أهلى إلا معى) فقال أسيد بن حضير أخو بنى عبد الأشهل : (أنا أعذرك منه يا رسول الله إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك) فقام سعد بن عبادة وكان سيد الخزرج وكان رجلا صالحاً ولكن أخذته الحمية فقال : (كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل) فقال أسيد بن حضير : (كذبت لعمر الله لنقتلنه فانك منافق تجادل عن المنافق) وكادت الأوس والخزرج أن يقتتلا والرسول على المنبر يخفضهم حتى سكتوا وسكت . وأسدل الستار على هذا الأمر جمعاً لشمل المسلمين وإبقاء على وحدتهم وهذا الأمر يخص رسول الله وزوجة له صالحة مؤمنة برأها الله وكرمها تبرئة وتكريماً من نور فى سورة النور .

تخلفه يوم تبوك :

كانت هذه الغزوة فى وقت صيف حيث الحر الشديد والمحاصيل على سوقها وشيكة الحصاد والثمار تنتظر قطافها والناس فى عسرة ولذلك سميت غزوة العسرة وأعلن الرسول أنه سائر إلى تبوك لملاقاة الروم فقد بلغ الرسول أن مليكهم قد جمعهم للزحف عليه ..

فأخذ عبد الله بن سلول ينفر المسلمين من الاستجابة لرسول الله إرجافا بالرسول ويوحى إليهم بالبقاء جانب الثمار حتى يجمعوها وأن الحر من الشدة بحيث لا يطيقونه وفيه نزل القرآن الكريم (فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالو لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حرا لوكانوا يفقهون فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاءا بما كانوا يكسبون(١)) .

ولما خرج الأنصار والمهاجرون رغم تثبيط الهمم وما بذله عبد الله بن سلول

---

(١) التوبة .

من المحاولات لتخلفهم وسار معهم عبد الله بن سلول قليلا ثم مالبث أن رجع بجماعته من المنافقين وتخلف أيضا أناس كان رسول الله يثق فيهم وإن كانوا قد اعتذروا للرسول بعد عودته لأنهم تخلفوا دون عذر وهم (كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع وأبو خثيمة) إلا أن أبا خثيمه كره أن يكون رسول الله في الحر والريح وهو في الظل البارد والماء البارد والطعام المهيء والمرأة الحسناء فاقسم ألا يحل عريش زوجة من زوجاته حتى يلحق رسول الله ولحق به فدعا له وقاطعهم المسلمون خمسين يوما إلى أن نزلت الآيات بقبول توبتهم (وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم)(١) .

وكان الرسول قد خلف علياً على أهله فأرجف به عبد الله ابن أبي (ماخلفه إلا استثقالا له وتخففا منه) وهو يريد أن يوقع بين على والرسول فأخذ على سلاحه ولحقه فى مكان يسمى الجرف فقال (يانبى الله زعم المنافقون أنك ماخلفتنى إلا استثقالا) فقال الرسول (كذبوا والله ماخلفتك لما تركت ورائى فأرجع فأخلفنى فى أهلى وأهلك أولا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لانبى بعدى) فرجع على راضياً مرضياً . .

ولما عاد الرسول سالماً بالمسلمين دون قتال لأن الروم لما رأت خروج المسلمين وعلى رأسهم النبي خافوا فأمر الله رسوله أن يهمل شأن المنافقين ولا يسمح لأحـــد منهم بالخروج معه فى قتال لأنهم عيون عليه أعداء له وقال له (فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك فى الخروج فقل ان تخرجوا معى أبداً ولن تقاتلوا معى عدوا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين(١)) .

(١) التوبة .

هل أفاد النفاق :

لم يثمر النفاق ولم يمتد أثره بعيداً ولئن كان قد عوق سير الجماعة إلا أنهم كانوا ينطلقون وقد عوضوا مافاتهم لما تبين لهم سوء نيات المنافقين وخسة أهدافهم . .

وبقدر ما كان يستهدف عبد الله بن أبى بن سلول هدم الدين الإسلامى فإنه كان سببا فى تنبيه العقول وتوضيح معالم الزور فلا يغشوها ودروب النفاق فلا يسلكونها وكانت أعمال المنافقين مردودة عليهم وحسرة كانوا يجترونها المرة تلو المرة . .

ورغم ماتسبب فيه المنافقون وأثمرت مكايدهم من أحداث آلمت الرسول ألماً شديداً وأرقته إلا أنها فى النهاية كانت تأخذ طابع الدرس القاسى والمحنة المجدية ورب ضارة نافعة . .

وماسلك المنافقون مسلكا فيه نفاق إلا انعكست عن قاعدة متينة من الأخلاق . .

ولو لم يحدث ما حدث من أعمال المنافقين لما تبين للناس خطر النفاق فيحذروه وشروره فيأمنوا منه .

ولو لم يبرز للدعوة من بين ظهرها أمثال عبد الله بن أبى ما استحقت تمجيد العالمين وما استحقت التقدير والتبجيل والتعظيم فإن هؤلاء الناس وقد شاقوا الرسول كانوا على جانب كبير من الخطورة فى كيدهم وضلالهم وضرواتهم . .

وكانت لاتغمض لهم أعـــين ولا يطمئن لهم فؤاد حتى ينالوا من الدعوة الإسلامية وكلما حلت بالمسلمين نازلة شمتوا وكلما سمعوا بسيئة نشروها ولـكنهم كانوا لايجنون سوى الحسرات والعبرات والندامة . . وفضحهم القرآن وجاءت الآيات البينات تحكى ألاعيبهم وتسجل نفاقهم وسلوكهم تسجيلا لايقف عند زمنهم بل

يظل يحكى للأزمان والأجيال من بعدهم ما كان منهم وهكذا تظل قصصهم باقية وتبقى فضيحتهم راسخة حتى يلتقوا يوم الحشر العظيم فيعرفون بسيماهم ويساقون إلى النار وبئس المصير ..

تتمة هامة :

ولقد تمثل كرم الرسول وخلقه العظيم فى أمور كثيرة نورد أمرين من هذه الأمور :

أولهما : لما نقض يهود بنى قينقاع العهد بينهم وبين الرسول وذلك بأن ظاهروا عليه قريشاً ولكن الهزيمة لحقتهم وانبرى شعراء بنى قينقاع يرثون قتلاهم فحاصرهم الرسول خمسة عشر يوماً وألقى الله فى قلوبهم الرعب ونزلوا عند حكمه عليهم ..

لكن عبد الله بن أبى شفع فيهم فقد كانوا حلفاء الخزرج فى الجاهلية وألح على رسول الله فأطلق رسول الله سراحهم وكانوا قرابة السبعمائة رجل يقال لهم رهط عبد الله بن سلام .

ثانيهما : أنه لما توفى عبد الله بن أبى بن سلول فى العام التاسع من الهجرة (٦٣٠) ميلادية جاء ابنه رسول الله يسأله أن يعطيه قميصه يكفن به أباه فقد كان عملاقاً يركب الفرس فتخط أبهاماه فى الأرض فأعطاه الرسول قميصه ولم يبخل به ولم يمنعه نفاقهم وماضيهم أن يمنع قميصه عنه .. وكانت استجابة كريمة راعى فيها الرسول بكاء الإبن الصالح على أبيه الطالح وهو موقف جعل المؤمنين يكبرون رسولهم ويزدادون إيماناً بقوله عز وجل « وإنك لعلى خلق عظيم » .

ولما أراد الرسول الصلاة عليه أمسك عمر بن الخطاب بثوبه يمنعه من ذلك

---

(١) التوبة .

وقال يارسول الله (تصلى عليه وقد نهاك الله أن تصلى عليه) قال الرسول (إنما خيرنى الله فقال : استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) وسأزيد على السبعين .

قال عمر بن الخطاب : يارسول الله إنه رأس المنافقين .

لكن رسول استجاب لتوسلات الإبن الصالح وأن القوم ستعيره ووصل الرسول قبر ابن سلول فأخرجوه وكانو قد دفنوه وتفل عليه من ريقه وألبسه قميصه ..

ونزل القرآن يحرم ذلك تحريما واضحا « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون »[1] .

---

(١) التوبة .

مسيلمة بن حبيب الحنفى

النبى الكذاب

رجل ثالث ممن شاقوا الرسول صلى الله عليه وسلم

ليس من مكة كمن بدأنا

ولا هو من المدينة بلد المهاجرين والأنصار

وإنما من نجد تلك التى تبعد عن مكة حوالى الألف كيلو متر

فى القرية المسماة اليوم بالجبيلة بقرب العيينة بوادى حنيفة فى نجد ولد ونشأ باليمامة

مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب الحنفى الوائلى أبو ثمامة

وتلقب بالرحمن وعرف برحمان اليمامة

وكان اسمه مسلمة وصغره المسلمون تحقيرا له قال عمارة بن عقيل

أكان مسلمة الكذاب قال لكم   لن تدركوا المجد حتى تغضبوا مضرا

ولأن الرجل عاش كذاباً فقد جاء فى الأمثال (أكذب من مسيلمة) .

وصفه المؤرخون وصفا يثير الحيرة والتعجب وتمثل معه خطورة الرجل وأنه لم يكن بالسهولة التى عرفها عنه العامة والبسطاء . .

فقد قالوا عنه أنه رجل قصير أخنس الأنف أفطسه شديد الصفره زرى الهيئة .

وقالوا عنه أنه على ذكاء مفرط ، وحيلة نافذة وأنه داهية خلاب قادر على استهواء النفوس من الرجال والنساء واستغوائهم .. يصانع كل أحد ويتألفه (١) ولا يبالى أن يطلع الناس منه على قبيح .

---

(١) يتابعه .

ويبدو أن الرجل كان يعوض الأولى بالثانية فجاءت أبعاد شخصيته على النحو المتقدم ذكره حيلة ودهاء تعوضانه ما فاته من هيبة ورواء .

من بنى حنيفة أصحاب اليمامة . .

وبنو حنيفة من أوفر القبائل النجدية ماء وثمرا وأمنعها جبالا ووديانا وأصلبها عودا وبأساً وكانوا على صلات بالفرس يحرسون قوافلهم المارة بهم نظير عطاء وثناء . .

وكانوا قساة القلوب غلاظاً شدادا ينالون من عدوهم بما يتنافى والرحمة الانسانية ويبطشون بمن يعاديهم بطشاً أليماً لايراعون حرمات ولا يبالون بالدماء تسيل ولا العبرات . .

يقول رافع بن خديج « قدمت على النبي صلى الله عليه وسلم وفود العرب وهم كثيرة فلم يقدم علينا وفد أقسى قلوباً ولا أحرى ألا يكون الإسلام يقر فى قلوبهم من بنى حنيفة وكان مسيلمة على الوفد » .

ولعلنا نذكر أن الشيطان تمثل بشيخ من نجد وقيل من بنى حنيفة واجتمع مع قريش فى دار الندوة ليلة . اجتمعوا لمناقشة أمر الرسول والتآمر عليه ليقتلوه جماعيا وكان هذا الشيخ يناقش فى فطنة ودهاء آراء القرشيين ثم وافق على اقتراح إبى جهل أن يقتلوا الرسول ﷺ جماعياً على النحو الذى أوردناه عندما تناولنا أبا جهل كرجل شاق الرسول . .

ولم يكن مسيلمة ليشذ عن بنى قومه بل فاقهم قسوة وبزهم غلظة عندما قسى على نفسه فظلمها وأغلظ فى القسوة على نفسه عندما أخذته العزة بالاثم فبات على ضلال وأصبح على القوم مدعيا أنه يوحى إليه من السماء وحيا لا يختلف عما يوحى إلى محمد القرشى ويسمع القوم من السجعات ما يعارض بها القرآن . . سجعات فى غاية السخرية والهذيان . .

ها هو يقول : (لقد أنعم الله على الحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاق(١) وحشى) وأيضا (ياضفدع بنت ضفدعين . نق ماتنقين . أعلاك

(١) الصفاق ما رق من البطن .

فى الماء وأسفلك فى الطين . لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدرين) .

وروى أن عمرو بن العاص قبل أن يسلم ويدخل فى صفوف المؤمنين ورد على مسيلمة فسأله مسيلمة ما آخر ما نزل على صاحبكم . . فأجابه عمرو بن العاص (نزلت عليه سورة موجزة بليغة) وقرأ عليه : (والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) .

فقال مسيلمة (وأنا نزل على مثلها) فقال له عمرو اسمعنيها فقال مسيلمة: (ياوبر (١) يا وبر وإنما أنت أذنان وصدر وسائرك حفر نقر) ثم قال لعمرو (ماذا ترى . .) قال ابن العاص (والله إنك لتعلم يا مسيلمة أنى أعلم أنك كاذب) فخجل مسيلمة . .

ولما سمع مسيلمة قول الله تبارك : « والذاريات ذروا فالحاملات وقرا فالجاريات يسرا فالمقسمات أمرا » عارضها بقوله (والمبديات(٢) زرعا . والحاصدات حصدا . والذاريات قمحا . والطاحنات طحنا . والخابزات خبزا . والثاردات ثردا(٣) واللاقمات لقماً إهالة وسمنا . لقد فضلتم على أهل الوبر . وما سبقكم أهل المدر . ريفكم فامنعوه(٤) والمعتر(٥) فآووه . والباغى فناوئوه) .

وقال فى بنى أسيد (والليل الأطحم(٦) والذئب الأدلم(٧) والجزع الأزلم(٨) ما انتهكت أسيد من محرم) وأيضا (والليل الدامس والذئب الهامس(٩) ماقطعت أسيد من رطب ولا يابس) .

فأقر بذلك لبنى أسيد سطوهم على جيرانهم وعلى ثمارهم وكان فيما يقرأ أيضا (إن بنى تميم قوم طهر لقاح(١٠) لا مكروه عليهم ولا أتاوه نجاورهم ماحيينا باحسان ، نمنعهم من كل إنسان فاذا متنا فأمرهم إلى الرحمن) .

---

(١) يقصد به الضب وهو حيوان صحراوى مألوف يأكله أهل نجد ويشبه عندنا ابن عرس .
(٢) فى رواية والمبذرات . (٣) فته ثم بله بمرق
(٤) لئلا يغلب عليه غالب . (٥) المدى . (٦) الأسود .
(٧) الأسود الطويل . (٨) الدهر . (٩) الشديد .
(١٠) لم يدينوا للملوك ولم يصبهم سباء .

وأيضاً [والشاء وألوانها ، وأعجبها السود وألبانها والشاة السوداء واللبن الأبيض ، إنه لعجب محض ، وقد حرم المذق فما لكم لا تجمعون .]

وكثير من هاتيك الترهات التى لا يرى معها العاقلون إلا أن هذا القرآن هو من عند العليم الخبير وأنه معجزة البيان لا يقــدر على الإتيان بمثله إنس ولا جان (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هـذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ..)

وكما ذكرنا أن الرجل كان على جانب كبير من السياسة والدهاء واستمالة الناس والتأثير عليهم وجرهم إلى رجاله ومكانه . . وكان لا يدخر وسعا فى هـذا السبيل فبالمـال تارة وأخرى بالاحتيال وثالثة بالتهديد والوعيد وكان شره يمتد مستطيرا وكيده قاتلا . .

حدث أنه استغوى نهـار الرجال بن عنفوة مبعوث الرسول ﷺ إلى اليمامة وسفيره اليها ليعلم أهلها أحكام الاسلام ويبصرهم بالفرائض وكان قد هاجر إلى النبي ﷺ وقرأ القرآن وفقه فى الدين ، فما لبث مسليمة قليلا أن استغواه بخبثه ولؤمه وحتى شهد له أنه يوحى إليه وأنه — نهار الرجال —كان قد سمع الرسول ﷺ يقول إنه قد أشرك معه فى نبوته مسيلمة وشهد له بالنبوة . . وبدلا من أن يهدى الناس طريق الرشاد ليعبدوا الرحمن إذ به يسوقهم إلى طريق الغواية طريق الشيطان . . وبدلا من أن يعلم أهل اليمامة وليشغب على مسيلمة وليشدد من أمر المسلمين كان أعظم فتنة على بنى حنيفة من مسيلمة .

وكما قدر لنهار الرجال أن يضله مسيلمة ويستغويه فقد قدر لرجال كثيرة أن تنطلى عليهم ألاعيب هذه الداهية وأن تضمهم رأية ذلك الدعى (الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) .

وقد استغوى كذلك سجاح بنت الحرث سويد بن عقفان التميمية ورهطها فى أخوالها من تغلب — وهى الأخرى ادعت النبوة — عندما قدمت إليه بجيش

لتغزوه وكانت قد استنزلت لهـــذا الجيش سجعات من وحيها المزعوم تقول فيها (عليكم باليمامة.. ذفوا ذفيف الحمامة(١) فإنها غزوة صرامة ولا تلحقكم بعدها ملامة) وكانت على قدر كبير من الجمال وحسن المنطق فاستجاب لها قومها رغم ما كانوا يعرفونه عن اليمامة من منعة وأن الحرب فيها فى العراء وهى أعتى وأعنف من تلك التى تكتنفها الجبال . .

وبلغ ذلك مسيلمة فخاف إن هو شغل بها أن يغلب ثمامة وشرحبيل بن حسنة والقبائل التى حولهـا على حجر وهى اليمامة فأهدى لها ثم أرسل يستأمنها على نفسه حتى يأتيها فأمنته فجاءها فى أربعين من بنى حنيفة ـ وكانت راسخة فى النصرانية ـ فقال مسيلمة : لنا نصف الأرض وكان لقريش نصفها لوعدلت وقد رد الله عليك النصف الذى ردت قريش فان قريشا قوم لا يعدلون وقيل بل تحصن منها فقالت له: إنزل فقال لها أبعدى أصحابك ففعلت وقد ضرب لهـا قبة وجمرها فتذكر بطيب الريح الجماع واجتمع بها فقالت له : ما أوحى إليك ربك ؟ فقال: ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحبلى أخرج منها نسمة تسعى بين صفاق وحشى فقالت وماذا أيضا قال : إن الله خلق للنساء أفراجاً وجعل الرجال لهن أزواجاً فتولج فيهن إيلاجا ثم تخرجها إذا تشاء إخراجاً فينتجن لنا سخالا إنتاجا . قالت : أشهد أنك نبى قال : هل لك أن أتزوجك وآكل بقومى وقومك العرب قالت نعم :

وأقامت عنده ثلاثا ثم انصرفت إلى قومها فقالوا لها ما عندك قالت كان على الحق فتبعته وتزوجته قالوا هل أصدقك شيئا قالت لا قالوا فارجعى فاطلبى الصداق فرجعت فلما رآها أغلق باب الحصن وقال مالك قالت أصدقنى قال من مؤذنك قالت شبث بن ربعى الرياحى فدعاه وقال له : ناد فى أصحابك أن مسيلمة رسول الله قد وضع عنكم صلاتين مما جاءكم به محمـــد صلاة الفجر وصلاة العشاء الآخرة .

---

(١) تحريك جناحى الطير ليطير .

فانصرفت ومعها أصحابها منهم عطارد بن حاجب وعمـرو بن الأهتم وغيلان ابن خرشة فقال عطارد :

أمست نبيتنا أنثى نطوف بها وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا

وهكذا ترى أن مسيلمة قد استغوى سجاح فشهدت له بنبوته وتزوجته وتوقى شرها ومن ورائها قومها من بنى تغلب ومن ورائهم الأكاسرة . . وقـد اختلف المؤرخون فى طريقة استغواء مسيلمة لسجاح وكيف أن الجنس قـد لعب دوراً كبيراً فى هذا الاستهواء يؤكد هـذا أنه كان على حظوة عند النساء وكان خبيرا بأهوائهن وأساليب مرضاتهن وكانت نساؤه يحببنه ويجزعن عليه، ولقد صاحت إحداهن ساعة مقتلة (وا أمير الوضاءة قتله العبد الأسود . .) والذى يعنينا أنه قد تأثرت به سجاح ومن ورائها رجالهـا بعدتهم وعتادهم وأكسبته عظمة عند قومه من الجهلاء والضعفاء. وظن به فريق آخر أنه ساحر يأتى بالخوارق إذ أنهم يرون سلطانه ولا يعلمون مأتاه فيخيل إليهم أنه سر من الغيب أو معونة من الجن والشياطين . .

ومسيلمة كان قد حذق صناعة الشعوذة والسحر على يد كهنة من العجم وعرف كيف يصل إلى القلوب وكيف يرمى بسهامه ويتخير مجاسه ومقامه ويأتى بالحركات والاهتزازات ورعـدة الجسد ما يشد الناس إليه ويصـدقونه القول مهما ادعى ويثقون فيه ويطيعونه . .

وكان قبل ادعائه النبوة يغشى الأسواق ويتعلم (النيرنجيات) على يد أساتذتها وكان على طبيعة من السحرة وأدعياء الغيب فقد قيل فى وصفه وهو يتكهن أنه إذا اعتراه شيطانه أزبد حتى يخرج الزبد من شدقيه وهو الأمر الذى يتأكد معه أن الرجل كان مصابا بصرع يأتيه بين الفينة والفينة فيخيل إلى من يراه أنه فى حالة تلق وحى أو هو مأخوذ إلى عالم غير عالمهم . .

قال عنه رسول الله ﷺ [إن مع مسيلمة شيطانا لا يعصيه ، فإذا اعتراه أزبد كأن شدقيه زبيبتان لا يهم بخير أبداً إلا صرفه عنه ، فإذا رأيتم منه عورة فلا تقيلوه العثرة .

فلم يكن غريباً أن يلتف حوله عدد كبير اختلف الرواة فى مقداره بحيث لا يقل عن ثلاثين ألفاً من الرجال وكلهم حملوا السلاح ووقفوا بجانبه وأتمروا بأمره وأيقنوا تماما أنه نبى يوحى إليه كنبى قريش .

كيف تنبأ مسيلمة :

كان انتصار الرسول يوم الفتح إيذاناً بأن تذعن قريش قاطبة وتدخل فى دين الإسلام وأن تتطهر الكعبة من الأوثان والأصنام وأن تسرى أخبار هذا الفتح وتجوب أنحاء الجزيرة العربية ليقبل العرب جميعاً من كافة البلاد وليدخلوا فى دين الإسلام . .

فتوافدت العرب من كل صوب وحدب تستضىء بنور الرسالة المحمدية وتخلع ثوب الجاهلية ثوب الضلال والبهتان لتلبس من لدن محمد ثوب الاسلام ثوب الطهر والإيمان .

وكان ممن قدم وفد من بنى حنيفة وفيهم مسيلمة فى العام التاسع من الهجرة .

عن ابن اسحاق قال : أن بنى حنيفة أتوا الرسول وخلفوا مسيلمة فى رحالهم وأمتعتهم . . فلما أسلموا لمحمد ﷺ ذكروا أنهم تركوا مسيلمة عند رحالهم وركابهم يحفظها ويرعاها فأمر رسول الله له بمثل ما أمر به للقوم وقال لهم الرسول (أما إنه ليس بشركم مكاناً يحفظ ضيعة أصحابه) ، وذلك الذى يريد رسول الله فجاؤا مسيلمة بما أعطاه الرسول فلما قدموا اليمامة ارتد عدو الله مسيلمة وتنبأ وتكذب وقال لقومه (إنى أشركت فى الأمر معه ألم يقل لكم حين ذكرتمونى له (أما إنه ليس بشركم مكاناً) وما ذلك إلا لما كان يعلم إنى أشركت فى الأمر معه .

ووضع عنهم الصلاة وأحل لهم الخمر والزنا فأصفقت(١) بنو حنيفة على ذلك .

وفى رواية أخرى حدثنا ابن حميد قال : حدثنا سلمة عن ابن اسحاق قال : حدثنى بعض علمائنا من أهل اليمامة أن بنى حنيفة أتت بمسيلمة إلى رسول الله ﷺ

---

(١) أجمت .

تستره بالثياب ورسول الله جالس فى أصحابه ومعه عسيب(١) من سعف النخل فى رأسه خوصات فلما انتهى إلى رسول الله كلمه رسول الله (لو سألتنى هذا العسيبه الذى فى يدى ما أعطيتك) .

ومن الروايتين يتضح لنا أن مسيلمة كان قد سمع بمحمد وكيف نجحت دعوته وكيف اتبعه رجال كثيرون ودانت له أقوام عديدة ، وكان مسيلمة يطمع فى هذه المرتبة لعله ينال شهرة نبى بنى هاشم ولم يكن يستطيع أن يعرض عن دعوة النبي وإنما سعى ليقابل رسول الله حتى يسلك منهجه ويتبع طريقته وفى الصحيحين من حديث نافع بن جبير عن ابن عباس قال (قدم مسيلمة الكذاب المدينة على عهد رسول الله فجعل يقول إن جعل لى محمد الأمر من بعده تبعته) ..

وقدم مسلمة فى نفر كثير من قومه فاقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه ثابت بن قيس بن شماس وفى يد النبي قطعة من جريد حتى وقف على مسيلمة فى أصحابه فقال (إن سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكها ولن تعدو أمر الله فيك ولئن أدبرت ليعقرنك الله وأنى أراك الذى أريت فيه ما رأيت وهذا ثابت بن قيس يجيبك عنى) ثم انصرف رسول الله قال ابن عباس فسألت عن قول النبي (إنك الذى أريت فيه ما رأيت) فأخبرنى أبو هريرة أن النبي قال (بينما أنا نائم رأيت فى يدى سوارين من ذهب فأهمنى شأنهما فأوحى إلى فى المنام أن أنفخهما فنفختهما فطارا فأولتهما كذابين يخرجان من بعدى فهذان هما (العنسى صاحب صنعاء والآخر مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة) .

ومن هنا يتضح لنا أن النبي رضوان الله عليه كان على معرفة بطوية مسيلمة وأنه قرأ فى وجهه كل ما يدور بخلده وأنه حذر منه ونهى أن ينال أحد منه وعداً أو شيئاً يستغله فى قومه الجهلاء .

ومهما تكن عند امرىء من خليقة   وإن خالها تخفى عن الناس تعلم

---

(١) جريد النخل .

بداية الشقاق:

كما قدمنا وأوضحنا أن مسيلمة تمسك بقول الرسول (أما إنه ليس بشركم مكاناً) ولما وصل اليمامة أعلن أن الوحى ينزل عليه كما ينزل على محمد وأخذ يرسل السجعات على نحو ما تنزل الآيات فصدقه بعض قومه وما لبث أن آمنوا به جميعاً وساعده فى ذلك الرجال مبعوث الرسول إلى اليمامة ليفقه أهلها فقد تأكد لأهل اليمامة صدق مسيلمة الكذاب وقد سمعوا الرجال يشهد أنه شريك لمحمد فى النبوة ويقول ابن عمر عن الرجال (كان من أفضل الوفدعندنا فكان أعظم فتنة على أهل اليمامة من غيره لما كان يعرف به) ويروى عنه أن رافع بن خـــديج قال (كان بالرجال من الخشوع ولزوم قراءة القرآن والخير فيما يرى شىء عجيب) .

غير أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال فى أصحابه ذات يوم (إن فيكم رجلا ضرسه أعظم من جبل أحد) يقصد بذلك نهار الرجال وقد صدقت نبوة الرسول.

وكان ابن عمر اليشكرى من أشراف بنى حنيفة وصادق الرجال صداقة وثيقة وظل مسلماً يكتم إيمانه خشية مسيلمة وخوفاً منه لكنه قال شعراً شاع فى اليمامة وأنشدته أهلها قاطبة استوى فى ذلك الكبير والصغير :

يا سعاد الفؤاد بنت أثال طال ليلى بفتنة الرجال
إنها يا سعاد من حديث الدهـ ـر عليكم كفتنة الدجال
فتن القوم بالشهادة والله عزيز ذو قوة ومحال
لا يساوى الذى من الأمـ ـر قبالا وما احتذى من قبال
إن دينى دين النبى وفـ ـى القوم رجال على الهدى أمثال
أهلك القوم محكم بن طفيـ ـل ورجال ليسوا لنا بالرجال
بزهم أمرهم مسيلمة اليـ ـوم فلن يرجعوه أخرى الليالى
قلت للقوم إذ تعاظمها الصـ ـبر وساءت مقالة الأنذال
ربما تجزع النفوس من الأمـ ـر له فرجة كحل العقال

أن تكن ميتتى على فطرة اللـ ـه حنيفاً فإننى لا أبالى

ولقد عرف مسيلمة والرجال ومحكم بن طفيل شعر ابن البشكرى وحاولوا الاهتداء إليه فلم يهتدوا فقد لحق بخالد وأخبره بحالهم وكشف له عوراتهم .

من النبي الكذاب إلى الصادق الوعد الأمين :

لم يكد مسيلمة يصل إلى اليمامة قادماً من المدينة حتى بعث إلى رسول الله بكتاب يعلن فيه نبوءته ويطالب مشاركته الدعوة الإسلامية والهدى الالهى . (من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله . . أما بعد فإنى أشركت فى الأمر معك وأن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن قريشاً قوم لا يعدلون) .

ولم تكن الرسالة مفاجئة لرسول الله فقد كان متوقعاً مثلها من رجل خابت طويته وسفلت خلقه وساء سبيلا فلما جاءته رسل مسيلمة وقرأ الرسالة حاورهم فوجدهم على دين مسيلمة ..

عن سلمة بن نعيم بن مسعود عن أبيه قال (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جاءه رسولا مسيلمة الكذاب بكتابه يقول لهما (وأنتما تقولان بمثل ما يقول؟) قالا (نعم) فقال (أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما) وكان يسميان (ابن النواحه وابن أثال) ..

وفى رواية أن الرسول قال لهما (تشهدان أنى رسول الله) فقال (نشهد أن مسيلمة رسول الله) فقال الرسول (آمنت بالله ورسوله لوكنت قاتلا رسولا لقتلتكما) وجرت السنة بعد ذلك أن الرسل لا تقتل مهما كان أمر موفدها .

ولم يكن فى الأمر بد من الرد على رسالة مسيلمة فكتب إليه الرسول صلى الله عليه وسلم (من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب السلام على من اتبع الهدى .. أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) وفض مسيلمة الرسالة فجن جنونه وأنزل بحاملها إليه العذاب وكان يسمى حبيب بن زيد ولم يرع مسيلمة حرمة الرسل ولا المعاملة بالمثل فما ذنب الرسول فيما حمله اليه

وتوجه مسيلمة إلى الرسول حبيب بن يزيد بالسؤال (أتشهد أن محمداً رسول الله) فأجابه (نعم أشهد أن محمداً رسول الله) قال مسيلمة (أتشهد أنى رسول الله) فرد عليه فى سخرية (أنى لا أسمع شيئاً) فأمر مسيلمة رجاله فقطعوا جسده عضواً عضواً وهو لا ينطق إلا بقول (لا إله إلا الله محمد رسول الله) إلى أن فاضت روحه الطاهرة.

ولما وصل الأمر إلى رسول الله حزن حزناً بالغاً وكان فى مرضته التى مرضها بعد انصرافه من حجه المسمى حجة الوداع والتى كان منها وفاته صلى الله عليه وسلم ودعا الله أن يخذل مسيلمة فى قومه وأن ينزل عليه غضبه وسخطه.

غضب الله عليه :

ظل مسيلمة يروج لدينه ويتخذ لذلك أبواقاً يرددون نبوته منهم الرجال ومحكم ابن الطفيل الذى كان بمثابة العقل المدبر له وكان يؤذن له عبد الله بن النواحة والذى يقيم حجير بن حمير فكان حجير يقول أشهد أن مسيلمة يزعم أنه رسول الله فقال له مسيلمة : افصح حجير . فليس فى المجمجة خير . وهو أول من قالها وسار فى طريقته طريقة الغواية يدعو لمريضهم ويبارك مواليدهم والقوم لا ينهاهم عن الاغترار به ما يريهم الله من خيبة مسيلمة والخسران المحيط به.

أتته إمرأة فقالت إن نخلنا لسحيق(١) . وإن آبارنا لجزر(٢) فادع الله لمائنا ونخلنا كما دعى محمد صلى الله عليه وسلم لأهل هزمان فسأل نهاراً (الرجال) عن ذلك فذكر له أن النبى دعا لهم وأخذ من ماء آبارهم فتمضمض منه ومجه فى الآبار ففاضت ماءاً وأنجبت كل نخلة وأطلقت فسيلا(٣) قصيرا مكمما ففعل مسيلمة ذلك فغار ماء الآبار ويبس النخل.

---

(١) جمع سحوق وهى الطويلة .
(٢) مجدبة .
(٣) صغار النخل .

وقال له نهار : أمر يدك على أولاد بنى حنيفة مثل محمد صلى الله عليه وسلم ففعل وأمر يده على رؤسهم وحنكهم فقرع كل صبى مسح رأسه ولثغ(١) كل صبى حنكه .

وجاءه آخر فقال إنى ذو مال وليس لى مولود يبلغ سنتين حتى يموت إلا هذا المولود وهو ابن عشر سنين ولى مولود ولد أمس فأحب أن تبارك فيه وتدعو أن يطيل ربك عمره قال مسيلمة سأطلب لك من ربى إنه كان بى حفياً فسر الرجل ورجع إلى بيته فإذا بابنه الأكبر ذى العشر سنوات قد تردى فى بئر ووجد المولود قد نزع إلى الموت وما مر اليوم وانقضى إلا وهما أموات فقالت أمهما وهى تبكى وقد نفضت يدها من الإيمان بمسيلمة (لا والله ما لأبى ثمامة ـ تقصد مسيلمة ـ عند إلهه منزلة محمد) .

وحدث أيضاً أن حفرت بنو حنيفة بئراً واستعذبوها فأتو مسيلمة وطلبوا منه أن يباركها لتظل لهم يرتوون منها ويشربون ويغتسلون فجاءها وبصق فيها فانقلبت ملحاً أجاجاً .

ولم يكن هذا الخذلان ليقعد الناس عن مسيلمة نبياً ورسولا وفسروا ما كان يحدث لصالح مسيلمة فمن قائل أن الله أراد للاقرع خصلة فى الجنة يوم القيامة ومن قائل أن من مات ابناه فهما عماده يوم يفر المرء من أمه وأبيه وأما عن البئر فقد فسروها بأنها خير قصده الله لهم حتى لا تصيبهم الأمراض وهكذا .

تنخير الأدواء ثم تصيبهم بالأوجع الأنكى من الأدواء

وأهل اليمامة على خلق منهار استحوذ عليهم الشيطان فأكسبهم حماقة وطغيان فلا يرون العذاب وعموا وصموا عما سوى مسيلمة نبياً ولو كان كذاباً وهم أيضاً على عقلية جامدة لا يسهل لديها أن ترجع عما آمنت ولو كان ذلك ضلالا وفيه هلاكهم (بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون . كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون . ثم أنهم لصالوا الجحيم(٢)).

---

(١) تحول من السين إلى الثاء أو من الراء إلى الغين .

(٢) المطففين .

وكان لبعد اليمامة عن المدينة أثرها الفعال فأهلها لم يشاهدوا النور المحمدى ولم يسمعوا إليه ولما بعث محمد ﷺ إليهم الرجال بن عنفوة من قبله استغواه مسيلمة وأضله السبيل فكان سيفاً على رقابهم ولم يصد متقدم من الكفر والضلال فهم باتباعهم مسيلمة وتمسكهم به فى موقف يستحيل على دونه أن يسلكوه . .

والحق يقال إن أهل اليمامة قد ابتلوا بمحكم بن طفيل وغيرهم ممن كانوا أبواقاً لمسيلمة لهم من سحر البيان وحسن المنطق ما أسروا به النفوس وزينوا لهم الشرك فى أروع مستحب لديهم فاستجابوا لهم ولم يكن سهلا أن يرجعوا إلى دين محمد ولا أن يستجيبوا لغير مسيلمة . .

يضاف إلى ماتقدم من الأسباب انتصار أهل اليمامة لنبيهم ولو كان على ضلال فانتصارهم لمسيلمة مرده أنه واحد منهم عاش بينهم وعرفوه وتأثروا به فلا يزالون معه وإلى جانبه مهما كانت عاقبة أمره ومهما قادهم إلى الهاوية وإلى الخراب . . (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون) .

سأل طلحة النمرى مسيلمة عن حاله فأخبره أنه يأتيه الرحمن فى ظلمة فقال : أشهد أنك الكاذب وأن محمداً صادق، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر وقد قتل طلحة النمرى يوم عقرباء كافراً مع مسيلمة هو الآخر .

ولقد كان أيضاً مما ساعد على شقاق مسيلمة ومجابهته الدعوة الإسلامية أن الرسول ﷺ كان يقترب من وداع أهل الأرض إلى الرفيق الأعلى . .

عن عبد الله بن سعيد بن ثابت عن عبيد مولى رسول الله ﷺ عن أبى موهبة مولى رسول الله قال : لما انصرف النبى ﷺ إلى المدينة بعد ما قضى حجة التمام فتحلل به السير وطارت الأخبار لتحلل السير بالنبى إنه قد اشتكى فوثب الأسود باليمن ومسيلمة باليمامة وجاء الخبر عنهما للنبى ثم وثب طليحة فى بلاد بنى أسد بعد ما أفاق النبى ثم اشتكى فى المحرم وجعه الذى توفاه الله فيه قبل القضاء على فتنة هؤلاء المدعين .

والناس لم يكونوا يصدقوا أن محمداً يموت وأنه مثلهم بشر يجرى عليه قضاء الله وقدره . .

فلم يكن هناك مجال لردع هذه الداعية الكذاب ولم تكن الظروف تسمح بحرب معه . .

ولعل رسول الله ﷺ كان يعلم سلفاً أنه بعد أن يلقى الله سوف يفتن الناس فى دينهم وسوف يرتد فريق عن دينه إلى ما كان يعبد من الأصنام والأوثان .

وأن أبا بكر سوف يكون عليه محاربة هؤلاء وهؤلاء . .

ومات رسول الله ﷺ بعد أن خطب فى الناس ما أقر به المبادىء الإسلامية السامية وما أبان معه معالم هذا الدين السمحة وأنه بذلك قد اكتمل الدين وتمت النعمة السماوية (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً)(١) .

واختلف الناس أمام موت رسول الله ﷺ وتغلبت العاطفة حتى أن عمر ابن الخطاب لم يصدق الأنباء وهم أن يقتل من ردد هذا النبأ وهلع وجزع من كان ثابت الفؤاد كعلى بن أبى طالب . .

ومن الناس من عاد إلى دينه القديم وقالوا (لو كان نبياً ما مات) .

وفريق آمن بالله وترك الصلاة والزكاة .

وثمة فريق ضعيف الإيمان شهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ولكنه صدق مسيلمة وأن النبى أشركه فى الأمر معه وأنه امتداد لرسول الله ، هذا الفريق قوى من شوكة مسيلمة وزاده عتوا وضلالا .

وكل الذى نود أن نقرره وألا يغرب عن ذهن القارىء أن مسيلمة والردة وما تبعهما من مشاكل هزت الدعوة الإسلامية من أعماقها كل ذلك لم يستغرق

---

(١) المائدة .

عاماً واحدا عادت بعده الدعوة الإسلامية والوحدة العربية حيث صرح الإسلام والمسلمين ومرتعه الخصيب قد عادت أقوى مما كانت عليه وصدق معها المثل القائل رب ضارة نافعة وتكاد تكون هذه الأحداث أضخم من معجزة الفتح بكثير بل أنها كانت تحقيق القومية العربية فى إطارها الجميل ذلك الإطار الذى تزدان به وحدة اللغة وتجانس النسب ووحدة الدم ووحدة الدين ووحدة الدولة الإسلامية تلكم الوحدات الفتية التى كتب لها البقاء وكتب لها النماء وكتب لها الانتصار فى كافة الميادين وذابت معها العنتريات والعصبيات وتلاشت القبلية الهوجاء والعنجهية الخرساء وسارت سفينة الحق تمخر عباب النور والهداية . . وتكسرت سفن الباطل على صخرة المبادىء القويمة وكتب الله الدعوة الإسلامية النجاة والسلامة على يد رجل عاش مع الرسول وهاجر معه وذكره القرآن مقترناً بالرسول (ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا) .

أبو بكر والمرتدين :

كان موت الرسول صلى الله عليه وسلم حدثاً كبيرا اهتزت معه الأفئدة وحزنت القلوب فقد كان صلوات الله عليه وسلامه للأفئدة والقلوب نورها وهاديها ومعلمها والآخذ بيدها إلى قمم الكمال وذرى السعادة . . فلا عجب عندما تفتقد الأفئدة والقلوب نورها وهدايتها فان الأمر يختلط عليها فهى بين مكذبة ومصدقة ومؤمنة ومرتدة.. وهو الأمر الذى حدث بين الناس فقد انتهز الأنصار الفرصة واجتمعوا عند سقيفة بنى ساعدة وشرعوا يختارون واحدا منهم يخلف رسول الله وسارع ثلاثة من الصحابة هم أبو بكر وعمر وابو عبيدة فى عدد من الصحابة ليعالجوا الأمر بالحكمة حتى لا تحدث فتنة وتتعرض الأمة الإسلامية لهزات وخلافات وقد نجحوا نجاحاً باهرا تجلت فيه الحجة والحكمة ووقى الله المؤمنين شرور الفتنة واستقر الرأى على أبى بكر خليفة لرسول الله يحكم بكتاب الله ويقيم دين الإسلام عالى الصرح شامخ البناء وأن رسول الله قد مات فمن كان يعبده فقد مات ومن كان يعبد الله فانه حى لا يموت فتنبه الناس إلى واقعهم وتنبه الناس إلى ما كانوا مقبلين عليه من دمار وخراب .

وسارت سفينة الحق تمخر عباب النور والهداية .

ولكن الأمر لم يقف عند حد الانتهاء إلى خليفة رسول الله ، بل تعداه إلى ما كان لزاماً على خليفة رسول الله أن يسلكه من القوة واحقاق الحق والتمسك بما كان عليه المسلمون فى عهد رسول الله .

فقد سارع بعض العرب برغم اعجابهم بالدين الإسلامى إلى انتهاز فرصة موت الرسول ليعودوا إلى النظام القديم الذى انتشلهم منه الدين الإسلامى فطردت بعض القبائل عمال رسول الله .

وحاكت القبائل بعضها البعض فانتشر الارتداد فى كل مكان وغالت بعض القبائل كاليمامة أن يكون لها ما لقريش من نبى وأن تجتمع العرب إلى زعامتها كما اجتمعت لقريش .

ولو لم يكن أبو بكر على جانب كبير من البطولة وأملأ بالحرب من غيره لكانت تلك الأزمة نهاية للدين الإسلامى وخاتمة للدعوة المحمدية حتى قال عنه ابنه محمد مفاخرا بأنه ابن فاقىء الردة .

لقد انبرى الشعراء يهيجون النفوس المريضة ويستعدوها على أبى بكر

أطعنا رسول الله ما كان بيننا   فيا لعباد الله ما لأبى بكر
أيورثها بكرا إذا مات بعده   فتلك لعمر الله قاصمة الظهر

وتكسرت سهام الردة أمام إصرار أبى بكر وأمام توفيق الله لخليفة رسول الله .

وقد حدث أن أبا بكر جمع أصحابه للشورى فى أمر هؤلاء المرتدين فقال عمر (كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فمن قالها عصم منى ماله ودمه إلا بحقها وحسابهم على الله) .

لكن أبا بكر أصر على قتال المرتدين وقال [والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال وقد قال رسول الله (الا بحقها)] .

وهنا يقول عمر (فوالله ما هو إلا أن شرح الله صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق) .

واستطاعت جيوش أبى بكر أن ترد القبائل إلى طاعة الله وأن تقمع حركة الردة .

مع النبي الكذاب :

كان مسيلمة يعرف جيدا من هو أبو بكر فقد رآه بالمدينة ورأى أنه أخلص الناس لمحمد صلى الله عليه وسلم وأشدهم غيرة على الإسلام وأنه لن يتركه يدعى النبوة ويجمع الناس على أنه رسول الله .

فتخلص من تمامه بن اثال بأن قاتله وكذلك بنى تميم وتوقى شر التغلبيين حين تزوج سجاح وردها وقومها إلى بلادهم محملين بالهدايا والعطاء وتخلص ممن عرف عنه إسلامه فقد يكون عينا عليه وفرغ بذلك لملاقاة جيش أبى بكر إذا ما زحف للقضاء عليه وحشد بذلك اتباعه فى مكان يقال عقرباء فى طرف بلاده على مقربة من بلاد بنى تميم فى أرض فسيحة مكشوفة يظهر فيها العدو قادماً فيعمل له الحساب وتبين اعداده وتظهر عدته ومقدرته .

واستنهض مسيلمة همم الرجال وشحذها وخطبهم شرحبيل بن مسيلمة (يا بنى حنيفة قاتلوا فإن اليوم يوم الغيرة . فإن انهزمتم تسترف النساء سبيات ، وينكحن غير خطيبات . فقاتلوا عن احسابكم وامنعوا نساءكم) .

وقد اختلف المؤرخون فى مقدار جيش مسيلمة إلا أن الثابت أنه يزيد على

الثمانية آلاف مقاتل مجهز بكافة صنوف أدوات القتال وحرارة الخصومة وشراحة الغيرة وصلابة العزم والأمل الكبير فى النجاح والانتصار .

الجيش الاسلامى إلى اليمامة :

بعث أبو بكر أول الأمر عكرمة بن أبى جهل ثم رأى حاجته إلى المدد فأمر شرحبيل بن حسنة أن يلحق به وأن يتلاقيا والا ينفردا بالهجوم على اليمامة لما يعلم من حصانة مسيلمة وقومه وطبيعة الأرض التى ستدور عليها المعركة وما عليها من اتساع ولكن عكرمة أراد أن يستأثر بالنصر فعجل عكرمة ليذهب بصوتها فواقعهم فنكبوه وكتب عكرمة بالخبر إلى أبى بكر فكتب اليه لا أرينك ولا ترانى لاترجعن فتوهن الناس إمض إلى حذيفة وعرفجة فقاتل أهل عمان وحضرموت وجاء كتاب أبى بكر يأمر شرحبيل بالتوقف حتى يصله مدد آخر . . وأمر خالد بالتوجه إلى اليمامة ويقود الحرب ضد مسيلمة النبى الكذاب وقومه المشايعين لدعوته . وكان خالد فى حروب مع المرتدين من القبائل فلما فرغ من بزاخة وبنى عامر أظهر أنه أبا بكر عهد اليه ليسير إلى أرض بنى تميم واليمامة فاحتج ثابت بن قيس وهو من الأنصار وخالد على الجماعة كلها وقال ثابت (ما عهد الينا بذلك وليس بنا قوة وقد كل المسلمون وعجف كراعهم) فقال خالد (لا استكره أحداً) وسار بمن تبعه وعجل شرحبيل بن حسنه وفعل فعل عكرمة قبل قدوم خالد عليه فنكب وحاجز حتى قدم عليه خالد ولامه فى ذلك .

قال شريك الغزارى (كنت ممن شهد بزاخة مع عيينة بن حصين ثم رزقنى الله الإنابة فجئت أبا بكر فأمرنى بالمسير إلى خالد وكتب اليه :

(أما بعد : فقد جاء كتابك تذكر ما أظفرك الله بأسد وغطفان وأنك سائر إلى اليمامة فأتق الله وحده لا شريك له وعليك بالرفق بمن معك من المسلمين ، كن لهم كالوالد وإياك يا ابن الوليد ونخوة بنى المغيرة فانى عصيت فيك من لم أعصه فى شىء قط ، فأنظر بنى حنيفة فانك لم تلق قوما يشبهونهم كلهم عليك ،

ولهم بلاد واسعة فاذا أقدمت فباشر الأمر بنفسك واستشر من معك من أصحاب رسول الله وأعرف لهم فضلهم فاذا لقيت القوم فأعد للأمور اقرانها فان اظفرك الله بهم فأياك والابقاء عليهم أجهز على جريحهم وأطلب مدبرهم واحمل أسيرهم على السيف، وهول فيهم القتل وحرقهم بالنار وإياك أن تخالف أمرى والسلام).

ومن خلال سطور هذه الرسالة تبرز أمامنا من الحقائق الهامة التى لم تخف على خليفة رسول الله وهو يوجه سيف الله إلى اليمامة تلك الحقائق التى تتمثل فى قوة العدو وخطره فجاء خطابه قاسيا عنيفاً ولقد سبق لخليفة رسول الله أن شغل أهل اليمامة بأن أرسل بادىء ذى بدء عكرمة وشرحبيل تلك الخطة التى اتسمت بالجرأة والتضحية ، وحقائق أخرى بعد فيها خليفة رسول الله عن سياسته فى الحروب فلم يكن من طبعه أن يجهز على الجريح أو يلاحق المدبر وما ذلك إلا لأن خطر العدو يعتمد إلى ما وراء المعركة إن دارت وانتهت سواء بالنصر أو الهزيمة وهذا الخطر يكمن فى تأثير مسيلمة ونبوته على هؤلاء القوم وانهم أحدثوا فى الإسلام احداثاً كبرى وهددوا الدعوة المحمدية الصادقة بالدعوة المسيلمية الكاذبة الكالحة .

ولقد كان الجيشان متكافئين جيش خالد وجيش مسيلمة كما وكيفا ففى العدد لا يكاد يلمح فارق بل أن جيش مسيلمة كان يربو عن جيش خالد وفى القيادة كان كلا القائدان على جانب كبير من الخطر والدهاء ودراية بأسباب الحرب فمسيلمة يكافىء خالد ذكاء وفطنة وحيلة ومكراً، غير أن مسيلمة كان يطمع فى مقام كبير تدين له من بعده العرب ولو كان طمعه على ضلال وخالد يريد للاسلام انتصاراً وللدعوة المحمدية انتشارا وذيوعا مما حدا بفئة من أعدائه أن تتجه إلى المدينة تطلب من أبى بكر الأمان وتبايعه أن يدخلوا فى دين محمد مخلصين له الدين فردهم أبو بكر بقوله (بيعتى أياكم وأمانى لكم أن تلحقوا بخالد فمن كتب إلى خالد أنه معه وحضر اليمامة فهو آمن وليبلغ شاهدكم غائبكم ولا تقدموا على) فكانوا رسلا إلى قومهم ينصحونهم بترك مسيلمة الموتور إلى خالد المبرور فمن القوم من استجاب لدعوة الحق والحقيقه ومنهم من أعرض فأما الذين استجابوا فكانوا خير عون لخالد وابلوا بلاء حسناً فكتب لهم ثواب الجهاد وأما الذين أعرضوا فكانت لهم الحسرة والندامة ودارت عليهم دائرة السوء .

طلائع جيش خالد :

ذكر الواقدى أن خالداً لما قدم العرض قدم مائتى فارس وقال (من أصبتم من الناس فخذوه) فانطلقوا وأخذوا (مجاعة بن مرارة) فى خمسين رجلا من قومه خرجوا فى طلب رجل أصاب فيهم دماً وهم لا يشعرون باقبال خالد فسألوهم (من أنتم) فقالوا من بنى حنيفة فقالوا (ما تقولون فى صاحبكم) فشهدوا أنه رسول الله فقالوا لمجاعة (ما تقول أنت) فقال (ما كنت أقرب مسيلمة وقد قدمت على رسول الله فأسلمت وما غيرت ولا بدلت) فجيء بهم خالد فضرب أعناقهم حتى إذا بقى سارية بن عامر قال (ياخالد إن كنت تريد بأهل اليمامة خيراً أو شراً فاستبق مجاعة) وكان شريفاً فى قومه فلم يقتله وترك أيضاً سارية فأوثقا فى الحديد ، وكان خالد يدعو مجاعة وهو كذلك فيتحدث عن مسيلمة ومجاعة يظن أن خالدا يقتله فقال يا ابن المغيرة (إن لى إسلاماً والله ما كفرت) وأعاد كلامه الأول فقال خالد (إن بين القتل والترك منزلة هى الحبس حتى يقضى الله فى حربنا ماهو قاض) ودفع به إلى زوجته أم متمم وأمرها بأن تحسن أساره فقال مجاعة (ياخالد أنا اليوم على ما كنت عليه أمس فإن يكن كذاب خرج فينا فإن الله يقول ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ فقال خالد (يامجاعة تركت اليوم ما كنت عليه بالأمس وكان رضاك بأمر هذا الكذاب وسكوتك عنه وأنت أعز أهل اليمامة وقد بلغك سيرى إقراراً له ورضى بما جاء به فلا أبديت عذراً فتكلمت فيه مثلما تكلم ثمامة أنكر ما جاء به مسيلمة وأنكر اليشكرى فإن قلت أخاف قومى فهلا عدت إلى أو بعثت إلى رسولا) .

فقال مجاعة (يا ابن المغيرة إن رأيت أن تعفو عن هذا كله) فقال خالد (عفوت عن دمك) وسأله خالد (أكان عندكم حقاً وكنتم تصدقونه) قال : (لو لم يكن عندنا حقاً لما لقيت غداً أكثر من عشرة آلاف سيف يضربونك حتى يموت الأعجل) فقال خالد : (إذن يكفينا الله ويقر دينه فإياه نعبد ودينه نريد) ..

وقد وردت رواية أخرى تقول « لما دنى خالد من أرض مسيلمة مرت مقدمة جيشه فى الليل بكوكبة من الفرسان بين الأربعين والستين .. عليهم مجاعة بن مرارة من زعماء بنى حنيفة وأصحاب الرأى والمنزلة فيهم وكأنه كان خارجاً لاستطلاع أمر المسلمين ، ولكنه أنكر ذلك وزعم أنه ذهب « لأخذ ثأر له فى بنى تميم وبنى عامر » . فلما سئلوا عن دينهم قالوا : منا نبى ومنكم نبى . فأمر خالد بضرب أعناقهم جميعاً واستبقى مجاعة عسى أن ينتفع بمنزلته فى قومه أو بعلمه بالحرب والمكيدة .

ودارت المعركة :

ودارت المعركة مع رجل شاق الرسول وشاق دعوته ورجل أطاع الرسول وحارب فى سبيل دعوته .

قال عبيد الله بن عبد الله (لما أشرف خالد وأجمع أن ينزل عقرباء ودفع الطلائع أمامه فرجعوا إليه وأخبروه أن مسيلمة ومن معه قد نزلوا عقرباء فشاور أصحابه هل يسير إلى اليمامة أو ينتهى إلى عقرباء وقر قرارهم أن يسيروا إلى عقرباء فزحف بهم إليها ولجأ إلى سياسة التخذيل ليكسر شوكتهم وكان عمير بن ضابىء فى أصحاب خالد فقال له (تقدم إلى قومك فأكسرهم) فأتاهم وقال . يا أهل اليمامة أظلكم خالد فى المهاجرين والانصار قد تركت القوم والله يتبايعون على فتح اليمامة وقد قضوا وطرا من أسد وغطفان وأنتم فى أكفهم وقولهم (لا قوة إلا بالله) أنى رأيت أقواما إن غلبتموهم بالصبر غلبوكم بالنصر وإن غلبتموهم على الحياة غلبوكم على الموت وإن غلبتموهم بالعدد غلبوكم بالمدد لستم والقوم سواء والإسلام مقبل والشرك مدبر وصاحبهم نبى وصاحبكم كذاب ومعهم السرور ومعكم الغرور فالآن والسيف فى غمده والنبل فى جفيره أسلموا قبل أن يسل السيف ويرمى بالسهم) فكذبوه واتهموه ..

وقام ثمامة بن أثال فقال : اسمعوا منى وأطيعوا أمرى ترشدوا إنه لا يجتمع

قيبان بأمر واحد . . . إن محمداً لا نبي بعده ولا نبي يرسل معه ثم قر ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير . ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم فى البلاد . كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب . وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار﴾ . إلى قوله ﴿إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون﴾ . .

وكان زياد بن لبيد الأنصارى من أصدقاء محكم بن الطفيل فقال له خالد لو ألقيت إليه شيئاً يكسره وكان شاعراً مجيدا فبعث إليه :

يامحكم بن طفيل قد أتيح لكم   لله در أبيكم حية الوادى
يامحكم بن طفيل أنكم نفر   كالشاء أسلمها الراعى لآساد
ما فى مسيلمة الكذاب من عوض   من دار قوم وإخوان وأولاد
فأكف حنيفة عنه قبل نائحة   تنعى فوارس قوم شجوها بادى
لا تأمنوا خالدا بالبرد معتجراً   تحت العجاجة مثل الأغطف العادى
ويل اليمامة ويل لا فراق له   إن جالت الخيل فيها بالقنا الصادى
والله لا تنثنى عنكم أعنتها   حتى تكونوا كأهل الحجر أو عاد

ورد محكم بن الطفيل حينما قيل له هذا خالد فى المسلمين (رضى خالد أمراً ورضينا غيره وما ينكر خالد أن يكون فى بنى حنيفة من أشرك فى الأمر فسيرى إن قدم علينا يلق قوماً ليس كمن لقى) .

ثم خطب محكم فى قومة (إنكم تلقون قوماً يبذلون أنفسهم دون صاحبهم فأبذلوا أنفسكم دون صاحبكم) .

ومع الدفعة الحيوانية مقرونة بالعدد الوفير وراحة الجسد اندفعت بنو

حنيفة تقاتل فى ضراوة وكانت قد اختارت مكان القتال ومكانته فلا غرو إذا كرت وهاجت وماجت ووثبت وثبة عاجلة وهجمة سوارة فاشلة وكأنها تحسب نفسها منتصرة وكذبت فما للباطل إنتصار وإنما الانتصار والغلبة للحق مهما نالت منه سهام الباطل وسيوف الكافرين .

أقبل بنو حنيفة وقد سلوا سيوفهم فقال خالد (يامعشر المسلمين أبشروا فقد كفاكم الله أمرهم .. ما سلوا سيوفهم إلا ليرهبوا) فقال مجاعة (كلا يا أبا سليمان ولكنها الهندوانية خشوا تحطمها وهى غداة باردة فأبرزوها للشمس تسخن متونها) وقد حدث أن بنى حنيفة أبدوا رأى مجاعة (إنا نعتذر إليكم من سلنا سيوفنا والله ما أسللناها ترهيباً ولكن غداة باردة فخشينا تحطيمها فأردنا أن تسخن متونهـا إلى أن نلقاكم) كانوا يقولون ذلك وقد التحموا بجيوش خالد واقتتلوا اقتتالا رهيباً بعزمة ودفعة كعزمة المؤمنين ودفعة الصادقين ودخلوا معسكر المسلمين ودخلوا خيمة خالد وفيها امرأته أم تميم ومجاعة بن مرارة مقيد بالحديد فأراد بعض الحنفيين قتلها شنعهم مجاعة قائلا لهم : نعمت الحرة هـذه . . . . عليكم بالرجال .

لقد كانت الدفعة الحيوانية يزكيها إيمان الحنفيين بنبيهم الكذاب وتلهبها النعرة القبلية وما يأملون من مكانة كمكانة قريش كانت الدفعة الحيوانية من القوة بحيث نالت من المسلمين وقتلت مجموعة كبيرة من حملة القرآن وحفظته ..

يصف وحشى بن حرب المعركة فيقول (اقتتلنا قتالا شديداً حتى رأيت شهب النار تخرج من خلال السيوف وحتى سمعت لها صوتاً كالأجراس) ..

قال ضرار بن الأزور :

لو سألت عنا جنوب لأخبرت عشية سالت عقرباء وملهم
وسال بفرع الواد حتى ترقرقت حجارته فيها من القوم بالدم
عشية لا تغنى الرماح مكانها ولا النبل إلا المشرفى المصمم(١)

---

(١) الذى يمر فى العظام .

فإن تبتغى الكفار غير مليمة جنوب ، فإنى تابع الدين مسلم
أجاهد إذ كان الجهاد غنيمة ولله بالمرء المجاهـــد أعلم

أمام هذا الموقف العسير الصعب رأى خالد بن الوليد أن ينظم جيشه جماعات كل جماعة تعرف أفرادها حتى لا يلتبس عليهم الأمر ويقتلون أنفسهم وهم لايدرون وميز بذلك المهاجرين وميز الأنصار وميز الأعراب كل بنى أب على رأية وخطبهم : أيها الناس تمايزوا حتى نعرف من أين نؤتى ولنعلم بلاء كل حى. فلما امتازوا قال بعضهم لبعض اليوم يستحى من الفرار .

وصاح زين بن الخطاب : أيها الناس عضوا على أضراسكم واضربوا فى عدوكم وامضوا قدماً والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله أو ألقى الله فأكلمه بحجتى . . . ونزل من فوق الربوة عاضاً على أضراسه زاما شفتيه لايحرك لسانه بهمس وتركز مصير المعركة لديه فى مصير الرجال بن عنفوة فراح يخترق الكتل البشرية المتحاربة حتى أبصره ونال منه وانتشر الخبر فتشامخت العزمات وشحذت الهمم .

وصاح ثابت بن قيس : يامعشر الأنصار الله الله فى دينكم علمنا هؤلاء أمراً ما كنا نحسنه .. أف لكم ولما تصنعون .

خلوا بيننا وبينهم أخلصونا .. يا أصحاب سورة البقرة .. يا أنصار الله اللهم إنى أبرأ إليك مما يصنع هؤلاء يعنى أهل اليمامة وأعتذر إليك مما يصنع هؤلاء يعنى المسلمين ثم قاتل فقتل .

وصاح عباد بن بشر : أنا عباد بن بشر يا للأنصار إلى . . فدا كم أبى وأمى حطموا جفون السيوف . .

وصاح أبو حذيفة : يا أهل القرآن زينوا القرآن بالفعال .

وأمام هذه الصيحات الصادقة التى انطلقت من القلب فاستقرت فى القلوب . .

لقد تذكر المسلمون يوم حنين وتذكروا نداءات الرسول فتجردوا من الدنيا وأقبلوا على الموت والاستشهاد فوهبت لهم الحياة ووهبت لهم الغلبة والانتصار . .

وما هى إلا فترة وجيزة حتى انكشف أصحاب مسيلمة منكسرين وهول الضرب يثخنهم وولوا الأدبار . . وظهرت فى مقام الهول فضائل الصناديد من كبار الصحابة وظهرت الفدائيات الغيورة والتضحيات المبرورة وتجلت عظمة المسلمين فى تماسكهم وتكاتفهم واندفاعهم نحو العدو يصلونهم نار الهزيمة ونين الثأر لقتلاهم . .

هروب النبى الكذاب :

لقد عول خالد على الموت كما وصاه أبو بكر وتجاوز الصفوف وكان يرتجز :

أنا ابن أشياخ وسيفى السخت   أعظم شىء حين يأتيك النفت

وجعل يخاطب مسيلمة طلبا لعورته[1] ويعرض عليه النصف[2] فهذا مايشتهى فأى الأنصاف يريد ومسيلمة يروغ منه ووجد مسيلمة أن المسلمين انتفضوا انتفاضة الموت أو الحياة فهرول ينجو بنفسه إلى حديقة مسورة سميت فيما بعد بحديقة الموت لكثرة من قتل فيها وأوشك مسيلمة ومن معه أن يغلقوا عليهم باب هذه الحديقة فلمحهم البراء بن مالك الذى أبلى بلاء حسنا فى هذه الموقعة الفاصلة بين الحق والباطل وبين النبوة الكاذبة والنبوة الصادقة.

وكان البراء بن مالك إذا حضر الحرب اخذته رعدة حتى يقعد عليه الرجال ثم يبول فاذا بال ثار كما يثور الأسد فأصابه ذلك فلما بال وثب وقال أنا البراء ابن مالك إلى أيها الناس فلما دخلت بنو حنيفه الحديقة صاح بإخوانه : يامعشر

---

(١) كان رسول الله قال : إن مع مسيلمة شيطانا لا يعصيه فاذا اعتراه ازبد كأن شدقيه زبيبتان لايهم بخير ابدا الا صرفه عنه فاذا رأيتم منه عورة ؟ فلا تقيلوه العثرة .

(٢) نصف الأرض .

المسلمين : ألقونى عليهم من فوق سورها فحملوه فوق ترس من الجلد رفعوها بالرماح حتى جاوزت سور الحديقة فقفز البراء بن معرور على مسيلمة وقومه وعالج الباب وهم يتكالبون عليه ويوسعونه ضربا وكأنه بالاسد الهصور لايبالى نهش الكلاب وتواثب فريق من المسلمين إلى جانبه فأعانوه حتى فتح الباب ودخل المسلمون واتجة عبد الرحمن بن ابى بكر الذى تأخر إسلامة — رغم مكانة أبيه فى الإسلام — يريد أن يكفر عن ذلك بعمل كبير فأسرع إلى الرأس المدبر والساعد الايمن لمسيلمة إلى محكم بن الطفيل فرماه بسهم فى نحره وهو يخطب ويحرض الناس فقتلة وصاح فى القوام (قتلت محكما) فأضطربت بنو حنيفة ووقعت فى الحيرة وليس هناك مجال للتشاور فقد سألوا مسيلمة أين ما كنت تعدنا فأجابهم (قاتلوا عن أحسابكم)فالهزيمة لاحقة بهم ولا إصغاء لمشير وتساقطت آلاف القتلى من أصحاب مسيلمة الكذاب .

مصرع النبي الكذاب : ١٢ هـ — ٦٣٣ م

مهما امتد سلطان الباطل وطال به الأمد فهو إلى نهاية مروعة وإلى مصير مرعب . ومهما علت راية الشرك خفاقة على وادى الموتورين المخدوعين الكافرين فلابد أن تسقط فى ساحة الحق مضرجة بدماء من التف حولها وآمن بها .. تلك حقائق ثابتة كالشمس فى دورانها واختلاف الليل والنهار . .

فبعد الجولة الأولى التى فازت فيها دولة الشرك برزت العقيدة إلى الطليعة وجاءت بمعجزاتها وهى معجزات كبار توحى بعقيدة هؤلاء الذين وقفوا إلى جانب خالد ضد عصابة مسيلمه وأشياعه الضالين . .

واندفع ذلك العبد الأسود الذى أعزه الله بالإسلام والذى قدر له أن يقتل

أعظم رجالات الإسلام أسد الله وسيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب يروى لنا ماصنعه بمسيلمة . .

يقول وحشى بن حرب (فلما خرج المسلمون إلى مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة خرجت معهم ، وأخــــذت حربتى التى قتلت بها حمزة . . فلما التقى الناس رأيت مسيلمة الكذاب قائما فى يده السيف ، فتهيأت له وهززت حربتى حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه فوقعت فيه . . فإن كنت قد قتلت بحربتى هذه خير الناس بعد رسول وهو حمزة . . فإنى لأرجو الله أن يغفر لى إذا قتلت بها شر الناس مسيلمة . .

لقــد هز وحشى حربته حتى إذا رضى منها دفعها نحو مسيلمة فوقعت فى ثنته حتى خرجت من بين رجليــــه وضربه رجل من الأنصار بسيفه ، ومات النبى الكذاب موتة قاسية جاءه الموت فيها بطيئا أليما تخلت عنه شياطينه وإرهاصاته . .

قال ابن عمر : فصرخ رجل قتله العبد الأسود فولت بنو حنيفة عند قتله منهزمة وأخذهم السيف من كل جانب .

وكتب الله للمسلمين وللاسلام الانتصار على مسيلمة وأصحابه وصنع الله بهم خيرا وأرثهم الأرض وجعل لهم عاقبة المتقين . .

وأمر خالد بمجاعة فجىء به وساقه إلى القتلى يعرف خالدا بهم فمر خالد برجل جسيم وسيم فقال خالد (يامجاعة أهذا هو) أى مسيلمة قال مجاعة (هذا أكرم منه هذا محكم بن الطفيل إن الذى تبغون رويجل أصيفر أخينس[١])

(١) تصغير أخنس والخنس تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل فى الأرنبة .

فوجدوه فقال مجاعة هذا صاحبكم قد فرغتم منــــه ، وقال خالد : هذا صاحبكم الذى فعل بكم ما فعل ووقف عليه خالد فحمد الله كثيرا وأمر به فالقى فى البئر الذى كان يشرب منها . . وهكذا طويت صفحة مخضبة بالعار والاستهتار وموشحة بسواد العقيدة وظلام الغرور . وفى الوقت ذاته سطر التاريخ صفحة من الفخار والإكبار مزدانة بمعانى التضحية والفداء . . رحم الله شهداء اليمامة من المسلمين ورحم الله خالدا ماعند الله خير مما كان فيه . بكاهم أبو بكر وعمر وقال عنهم عمر بن الخطاب (ألحت السيوف على أهل السوابق[1] ولم يكن المعول[2] يومئذ إلا عليهم . . خافوا على الإسلام أن يكسر به فيدخل منه أن ظهر[3] مسيلمة فمنع الله الإسلام بهم حتى قتل عدوه وأظهر كلمته وقدموا[4] رحمهم الله على مايسرون به من ثواب جهادهم من كذب على الله وعلى رسوله فاستحر[5] بهم القتل فرحم الله تلك الوجوه .

---

(١) السابقون فى الإسلام (٢) الاعتماد عليهم والأمل فيهم (٣) انتصر
(٤) اقبلوا (٥) كثر القتل فيهم .

اهم المراجع

١ — تفسير القرآن العظيم لابن كثير

٢ — سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لابن هشام
مراجعة محي الدين عبد الحميد

٣ — مختصر سيرة الرسول لمحمد بن عبد الوهاب
تحقيق محمد حامد الفقي

٤ — الموسوعة العربية الميسرة إشراف محمد شفيق غربال

٥ — الأعلام لخير الدين الزركلي الطبعة الثانية

٦ — شذرات من ذهب لأخبار من ذهب
لأبي الفلاح الحنبلي بن العماد

٧ — الكامل في التاريخ لابن الأثير

٨ — تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم

٩ — حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل

١٠ — تاريخ الإسلام السياسي للدكتور حسن إبراهيم حسن

١١ — مكة والمدينة للدكتور أحمد إبراهيم الشريف

١٢ — العبقريات للأستاذ عباس محمود العقاد

فهرس الموضوعات

مطبعة الجبلاوى
٢٠٢ شارع الترعة البولاقية

مطبعة الجبلاوى
٢٠٢ شارع الترعة البولاقية

١٥